أوسكار وايلد

الفوضويون

مسرحية



الدار العربية للموسوعات

الفوضويون

"مسرحية"

اخراج وتنفيذ



THE ARAB ENCYCLOPEDIAS LTD.

London

2 Greet Lodge 15 Westbourne

Grove Terrace London W2 P.O. Box 1058

Tel. (01) 2293880 (01) 2294054

Telex: Arhen G125368 Telefax: 2500807

الدار العربية للموسوعات

بيروت

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تأليف: أوسكار وايلد

الفوضويّون

"مسرحية"

ترجمة

عبد المجيد حسيب القيسي

تصدير

الدكتور يوسف عز الدين

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الثانية
١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

وتلك الأيام نداولها بين الناس .

صدق الله العظيم والحمد له سبحانه وتعالى إذ مدّ في أيامنا حتى تيسر لنا أن نعيد طبع هذا الكتاب في هذه الأيام بعد أن كنا قد نشرناه في بغداد قبل ما ينوف على ربع قرن من الزمان .

وإذ نعود اليوم ـ بعد طول غياب ـ إلى هذا الكتاب ، فكأننا نلتقي صديقاً قديماً نأى به المكان ، وشط به المزار فطال فراقه وبعد العهد بلقياه ، فيذكرنا لقاؤه بماض بعيد عزيز على النفس رغم ما كان فيه من أشجان وأتراح .

وقصة هذا الكتاب هو انني ترجمته وكتبت مقدمته في حال فكري خاص ، وفي ظروف سياسية معينة تسلّطت فيها على مقدرات العراق عصبة طاغية كافرة بقيم العراق ومثله واعتقاداته . وكان البغي والعدوان والحقد المسعور شعارها وديدنها .

وكان القائمون على الحكم في العراق يوم ذاك يساندون هذه الفئة تارة ، ويتظاهرون بعدائها تارة أخرى . وكانوا يفضحون جرائمها البشعة صراحة ومداراة مرة أو إثنتين ، ويتسترون عليها

مرات ومرات أخر . وكانوا يتخذون من كلمة « الفوضويون » سلاح اتهام ضدها تارة ، أو درء لحمايتها والتستر عليها تارات أخرى .

وهذا هو السبب وراء إلحاحنا في مقدمة الطبعة الأولى على تفسير مصطلحي « الفوضوية » و « الفوضويون » ، ومحاولة التفرقة بينهما وبين المذاهب السياسية الأخرى ودعاتها .

ومن يعيد اليوم قراءة المقدمة ، وهو على علم بما كان يجري في العراق في تلك الفترة من محاكمات صورية ، وما يتخللها من غوغائية وإسفاف ، يستطيع أن يتبين من بين سطورها ، وبيسر واضح ، معالم تلك الأحداث وملامح القائمين بها ، ويستطيع ، بسهوله ويسر أيضاً ، أن يعرف المقصود بالمهرجين الجالسين مجالس القضاء والتعليم، الفارغين من كل فحوى أو محتوى، وهما كلمتان طالما كانوا يرددونهما كالببغاء لا يفقهون لهما فحوى ولا محتوى . . رحمهم الله وغفر لهم .

في هذا الحال النفسي والفكري ترجمنا هذا الكتاب وكتبنا مقدمته إزجاء للفراغ وترويحاً عن النفس وتنفيساً للكبت وتعبيراً عن الرأي وتحدياً لسلطة الدولة ، ومن يتظلل بظلها من عصابات البغي والإرهاب .

ويقتضينا الاعتراف بالجميل أن نذكر لذوي الفضل أفضالهم . فما كان لهذا الكتاب أن ينشر ويرى النور يوم ذاك ، وهذه الفئة الباغية متسلطة على مقدرات العراق ، وعلى أفكار الناس وأرزاقهم وأعناقهم ، لولا خطوة جريئة من صديق عزيز ، لا يخاف في الحق

لومة لائم هو المرحوم الأستاذ شاذل طاقة ، وقد كان إبَّانَ نشر هذا الكتاب المسؤول عن رقابة الكتب وإجازة نشرها في وزارة الإعلام ببغداد فاستطاع بهمته وجرأته أن يأذن بنشر هذا الكتاب حاملاً تبعة قراره بقلب ذكي وأنف حمي .

وما أن نشر هذا الكتاب حتى انقسم الناس بشأنه إلى معسكرين إثنين . أولهما معسكر الفئة الباغية وأنصارها والسائرين في ركابها الذين رأوا في صدور مثل هذه الكتب خروجاً على سيطرتهم ومروقاً من الخط الفكري الذي فرضوه على الناس ، وتنديداً مقصوداً بهم . لهذا فلم يبخلوا على الكتاب وكاتبه ومترجمه بما يزخر به قاموسهم من بذيء النعوت والأوصاف التي يستمدونها من واقعهم وأحوالهم . كما لم يبخلوا على ناشر الكتاب بالمال فتلقفوا جميع نسخه حال صدورها ، فأغنوا الناشر ولم يدعوا للكتاب سبيلاً للإنتشار .

أما المعسكر الثاني فكان معسكر العراق الأبي الذي وقف ـ وقت ذاك ـ جبهة واحدة صامدة في وجه التيار الشعوبي الباغي يرده على أعقابه خاسئاً مدحوراً وهو حسير ، فقد قدّر الكتاب ومترجمه حق قدرهما .

واليوم وقد مر الزمان وتداول الله الأيام بين الناس ، ومرّ العيش وحلا ، وتغيرت الدول والأحوال والرجال ، ونأى بنا المقام عن بغداد إلى قوم كرام آمنونا وأكرمونا ، فإني أعاود النظر في مقدمة الكتاب ، فلا أجد مبرراً أو موجباً لما ينصح به الخلان من وجوب التغيير

والتصحيح فيها بالحذف والتنقيح إلا بعض أخطاء مطبعية هنا وهناك لا غير .

فليس فيما تغيّر من أحداث وما استجد من أحوال ومن دول ورجال ، ما يدعونا إلى أن نغيّر اليوم ما كنا قد كتبناه بالأمس ، عدا عن أن الكتاب يعكس بعضاً من حال فكري وواقع سياسي عايشناه زمناً ولا نجد اليوم ما يدعونا إلى نكرانها أو التستر عليها ، ولسنا ـ كما يعلم أصدقاء الأمس وعداته ـ ممن يداهنون في رأي نراه أو عقيدة نتبناها .

وبعد فهذه هي قصة هذا الكتاب وقد ذكّرنا بها لقاؤنا له بعد الغياب الطويل ، نقدمها شرحاً وعذراً للقارىء الجديد ، عمّا يجده في مقدمة الكتاب من آراء ومواقف ، واستطرادات قد لا يرتضيها ولا يجد لها مبرراً لجهله بالخلفيات الفكرية والسياسية للموضوع . ونرجو أن يكون الشرح وافياً ، والعذر مقبولاً .

كما نرجو أن يكون فيما تقدم من القول بعض ردنا على ما أخذه علينا صديق ناقد من اهتمامنا بشرح الخلفيات السياسية للموضوع ، وإهمالنا البحث عن المسرحية نفسها كعمل فني مسرحي . وبعض الرد الآخر هو في اعترافنا بأننا لسنا من فرسان هذا الميدان ولا ممن اشتغل بالنقد المسرحي في آن من الآوان .

وكما يذكّرنا هذا الكتاب بقصة نفسه فهو يذكّرنا أيضاً بموضوعه ومحور روايته وهو الإرهاب وشيوعه في العالم أجمع في زماننا هذا شيوعاً يذكرنا من قريب أو بعيد، بشيوعه في أوروبا في مثل

هذا الأوان من القرن المنصرم ، دون إغفال منا للفروق والاختلافات في طبيعة العمل الإرهابي ووسائله وأهدافه التي اقتضاها تغيّر الأحوال والأزمان .

فقد كان الإرهاب القديم مظهراً تطبيقياً لحركات فكرية وعقائدية أدت إليها أوضاع العصر السياسية والإقتصادية والإجتماعية . وكانت تهدف إلى تغيير تلك الأوضاع في دول أوروبا ، وإذ ضاقت بها سبل العمل وانعدمت وسائله لجأت إلى العنف والإرهاب وبث الرعب والذعر في نفوس القائمين على أمور الحكم في أوروبا وسيلة إلى تحقيق الإصلاح المنشود .

وكانت حركات الإرهاب هذه تتوسل السرية والكتمان أسلوباً في العمل وتحقيق الأهداف ، وتنهض به جماعة من أهل الرأي والتدبير مجهولة الهوية ومجهولة المكان ، إن لم تكن مشردة مطاردة تتقاذفها البلدان والدروب . وكان الناس فوق هذا وذاك لا ينظرون لهذه الحركات وللقائمين بها نظرة ارتياح وتقدير ، ولعلهم ، أو أكثرهم ، ينظرون إليها نظرة مقت ونفور .

أما حركات الإرهاب في عصرنا الحاضر ـ أو معظمها ـ فقد تغيّر ـ كما يقول المتفيقهون من أصحاب اليسار ـ فحواها ومحتواها واختلطت أشكالها وأساليبها وغاياتها .

فما كان بالأمس حركة سرّية لها منظروها وفقهاؤها أصبح اليوم عملاً حزبياً مشروعاً له أجهزته وإداراته أو حركة ثورية علنية معترفاً بها ، لها جيشها وقوادها وسلاحها ، وهي تتوسل الإرهاب والعنف للإفهام

أو الإرغام أو للدعاية والإعلان أو لمجرد لفت الأنظار واستقطاب الأنصار .

والأخطر من هذا والأكثر ويلاً وثبوراً أن ما كان بالأمس حركة تضحية وفداء ضد الطغيان والطغاة ، وفي سبيل الحرية والديمقراطية والعدالة والأمان للشعوب أصبح في زماننا الرديء هذا وسيلة من وسائل الحكم والإدارة يستحل فيه الطغاة المستبدون المذعورون كل طرق القمع والقتل والإبادة والتشريد لإمتاع شعوبهم بمزايا الحرية والديمقراطية والعدالة والأمان .

ولسنا هنا في موقف المفاضلة أو المقارنة بين حركات الإرهاب وطبيعتها في العصرين . فلنا نحن العرب أكثر من موقف في قضايا الإرهاب في العصر الحديث عانينا وما نزال نعاني منها الأمرين وما عادت علينا وعلى قضايانا إلا بالفشل والخذلان . ومع اختلاف المقاييس والأحكام باختلاف العصور فما زال الإرهاب تهمة يتبرأ منها الجميع ويقذف بها الخصوم .

ومهما يكن من رأي أو موقف في هذا الموضوع فالمفاضلة عندنا غير ذات موضوع أصلاً فنحن ضد الإرهاب ، ضده عقيدة وعاطفة وفكراً وعملاً ، وفي كل زمان ومكان ، ومن أي جهة أو مصدر وبأي شكل أو وسيلة ولأي غاية أو هدف . كما لسنا في سبيل المقارنة بين ما هو حادث في هذا الزمان ، وما كان يحدث مثله قبل مائة عام ، وإنما نريد في هذه العجالة أن نخلص إلى أن أجواء العصر التي أوحت لأوسكار وايلد بكتابة هذه المسرحية قبل قرن من

الزمان ، ما تزال تخيم على العقول والأذهان وما تزال أصداءٌ منها ترن في الآذان ، وصور منها تتردد أمام العيان . فلعلنا لا نكون مخطئين إذا أعدنا تقديم هذه المسرحية في هذه الأيام .

وكما يذكرنا هذا الكتاب بنفسه وبموضوعه فهو إذن أحرى أن يذكرنا أيضاً بكاتبه ومؤلفه رفيق رحلتنا الطويلة في عوالم الفكر والزمان والمكان ، ونعني به أوسكار وايلد .

فلقد بعد به هو الآخر العهد ونأى به الزمان ووهنت صلتنا به لا بل بعوالم الفكر والآداب والفنون عامة وفي العالم أجمع ، فقد كانت حياتنا طيلة هذه الأعوام حياة غربة وترحال وهجرة وانتقال لم يكن يتيسر لنا فيها من الوقت وفراغ البال ما نستطيع به أن نواجه منع الفكر والروح ، حتى إذا مّن الله علينا آخر الأمر بنعمة الاستقرار في البلد الطيب الآمن ، أبو ظبي ، فقد شغلتنا فيها ولأعوام عديدة مهام التأسيس والبناء لهذا البلد الكريم ، وكانت ـ وإيم الله ـ مهاماً شيقة ولكنها جمة مضنية لم تدع لنا مجالاً من الوقت للإنصراف إلى غيرها من شؤون الحياة .

ولما تيسر لنا اليوم شيء من فراغ الوقت والبال فقد عدنا إلى صاحبنا أوسكار نستقصي ما كان من أمره وما جد من خبره . فإذا بنا نجد ما كتب ونشر عنه في فترة غيابنا عنه ، أكثر من أن تلم به قراءة عابرة أو دراسة سريعة ، بل هو يفوق كثرة وتنوعاً ما كان قد كتب عنه في الخمسين سنة الأولى المنصرمة على وفاته .

فقد نشرت وصية أوسكار عام ١٩٦٤ أي بعد ستين عاماً من وفاته ، كما أوصى هو بذلك ، ونشرت معها بقية قصيدتـه الرائعـة الشجية « من الأعماق » والتي نظمها وهو في السجن ونشر بعضها ثم أوصى ألا ينشر باقيها إلا بعد ستين عاماً من وفاته .

وعلى أثـر هذا أو بسببـه بدأت المـطابـع تخـرج سيـلاً من المؤلفات عن أوسكار وأدبه وحياته . فقد نشر اللورد دوغلاس كتباً عدة يهاجم فيها أوسكار أو يدافع عنه ، ويحكي فيها قصصاً متغايرة عن طبيعة علاقته بأوسكار أو على الأصح عمّا يدعيـه هو عنهـا أو يحـاول به الـدفاع عن دوره في تلك العـلاقـة المـريبـة . واللورد دوغلاس هو صديق أوسكار الذي كان سبب نكبته وسجنه ومأساته .

وتبارى الكثيرون من أصدقاء أوسكار ومعارفه في كتابة ونشر ذكرياتهم عنه أو آرائهم فيه ، وكان من أهم هؤلاء أندرية جيد، الكاتب والمفكر الفرنسي الشهير ، وكان صديقاً حميماً لأوسكار ورفيقه في باريس أيام شبابهما في شذوذه ومباذله ومجونه .

وقام المستر روس ، وهو من أقدم أصدقاء أوسكار وأقربهم إليه وأكثرهم وفاءً لذكراه وراوية شعره وحافظ وصيته ، بنشر أوراق جديدة لأوسكار وايلد منها رسائل شخصية وأخرى أدبية ونقدية كتب معظمها في السجن . وكان المستر روس قبل ذاك قد نشر دراسة وافية عن صديقه أوسكار ما زالت تعتبر أحسن ما كتب في الموضوع .

وكان أوسكار قد خلّف ولدين انخـرط أحدهمـا في الجيش

ومات في الحرب العالمية الأولى ، وكان ثاني الولدين أقل صلابة وأرق عاطفة من أخيه ، فاشتغل في الأدب والنقد واتخذ اسم فيفيان هولاند . وقد نشر هذا الإبن كتاباً ممتعاً عن ذكرياته مع أبيه يلقي أضواء عاطفية شيقة على طبيعة حياتهم العائلية .

ومن أظرف الدراسات التي ظهرت في هذا الميدان كتابان عن حياة السيدة كونستانس زوجة أوسكار وايلد . والكتابان يلمان بطبيعة الحال بسيرة أوسكار ويتعرضان إلى أدبه وشعره وفنه الروائي المسرحي .

ومن الظريف أيضاً أن كلًا من عنواني الكتابين يشيران إلى مسرحية من مسرحيات أوسكار . فعنوان الكتاب الأول هو :

Mrs. Oscar Wilde, A Woman of Importance.

وعنوان الثاني :

The Importance of Being Constance.

وهما يشيران إلى مسرحيتي :

A Woman of No Importance.

و

The Importance of Being Earnest.

وهما من أشهر مسرحيات أوسكار بل ومسرحيات الأدب الإنكليزي قاطبة .

وكانت كونستانس قد ماتت قبل أوسكار فرثاها أشجى رثاء .

ولم يقتصر الأمر على أصدقاء أوسكار ومعارفه بل توالت

الكتب عن تاريخ حياته وجوانب فنه وعبقريته كما توالت معها الدراسات النقدية عن شعره ونثره وقصصه ومسرحياته . وكان الاهتمام الأكبر منصباً على دراسة قصيدته الطويلة « من الأعماق » وقصائد أخرى نظمها في السجن ولم يكشف النقاب عنها إلا مؤخراً .

وكما أثرت هذه الدراسات التاريخية والنقدية في الأدب الإنكليزي في هذا الباب أيما إثراء ، فإنها أتاحت للناس فهماً أوسع وإدراكاً أعمق لحياة هذا الأديب الفذ ، وألقت أضواء جديدة « منصفة » على بواعث نزواته وأوابد طبعه وغرائب سلوكه . وكانت نتيجتها إنصافاً للرجل وتنقية لسيرته ، ورداً للإعتبار إليه ، وتوكيداً لمقام أوسكار وايلد الكاتب الأديب والشاعر المبدع والروائي الساحر والفنان الساخر والمحدث اللبق والناقد اللاذع . وبهذا صفا له الزمن بعد اكفهرار وعبوس وانحسرت عن سمائه سحب الغين والنحوس وعاد له سطوعه الباهر في عوالم الفن والأدب وعادت إليه زعامته فيها .

ولا ندري إن كانت روح كاتبنا الكبير قد سعدت بما ناله صاحبها من إنصاف وعرفان بعد جحود ونكران ، ام ركبها طبعه الساخر المتمرد وهو في عرشه مع الخالدين في عليين فلم يكترث ولم تكترث روحه بموجات الإنصاف والمدح . . فليس بنافعه المادحون ، وليس بضائره من قدح . مع الاعتذار للشاعر أحمد شوقي عن هذا الإقتباس المقلوب لبيت شعر مشهور له هو :

وليس بنافعه الزائرون   وليس بضائره من هَجَرْ

وقبل ختام هذه المقدمة لا بد من كلمة ، لا يذكرني بها هذا الكتاب فحسب ، بل يذكرني بها قبل ذلك وبعده واجب الوفاء وعرفان الجميل ، ويذكرني بها الإخاء المتين والود العميق وصحبة العمر « الطويل والحمد لله » ، وهي إزجاء أوفر الشكر وأوفاه إلى رفيق العمر الأخ الصديق الصدوق الدكتور الأستاذ يوسف عز الدين ، فإليه يعود كل الفضل في هذا الكتاب فلولا تشجيعه المستمر ولولا عطفه ورعايته وشدته ورقته ووعده ووعيده وصائب نظره وتقويمه ، لما كانت هذه الترجمة ، ولا كان هذا الكتاب ولا مقدماته .

ثم زاد أفضاله فتولى عني ، ورغم مشاغله الجسام ، عذاب الإشراف على طبع الكتاب وإخراجه في طبعته الأولى . ثم زاد ففاجأني بكلمة التصدير التي زيّن بها صدر الكتاب والتي جاشت بها عاطفته الأخوية ، فحادت به عن موازين نقده الدقيقة حين خلع علينا من الأوصاف ما نود أن نكونه وما نحن عنه الآن في واقع الأمر جد بعيدين . فإلى جوهر وده الصافي وإلى نبل خلقه الكريم وإلى أخوّته الصادقة ألف شكر وشكر . وجزاه الله عنا وعن الأدب خير الجزاء .

وختاماً نقدم الشكر لكل من قرأ هذا الكتاب في طبعته الأولى ونقده أو شتم مؤلفه ومترجمه أو رأى فيه رأياً . وشكراً لكل من سيقرأه في طبعته الثانية هذه ويشاركنا مغتبطاً أم كارهاً ومحباً أم قالياً ، رحلتنا الطويلة في عوالم الفكر والفن . والسلام . . .

أبو ظبي ـ أول حزيران / ١٩٨٨

عبد المجيد حسيب القيسي

الترجمة والمسرحية العربية

بقلم الدكتور يوسف عز الدين

الترجمة من الفنون الجميلة التي تحتاج إلى أصالة في الطبع واطلاع واسع على مفردات اللغة وفهم عميق لمعانيها . ولم يأخذ هذا الفن منزلته التي يستحقها ولم تبذل من أجله العناية اللازمة . . ولا يعد المترجم متفوقا إذا لم يكن ذا ذوق أصيل في اختيار الألفاظ المناسبة واستيعاب معانيها ليضعها في المحل المناسب لها .

وقد بدأت الترجمة من اللغات الاجنبية إلى اللغة العربية في العصر الاموي ولكنها كانت محاولات فردية ولم تأخذ شكلاً عاماً إلا في العصر العباسي ، عندما شجع المنصور والرشيد والمأمون على الترجمة من اليونانية والسريانية والفارسية . . ويقف الأديب العربي موقف الإعجاب والتقدير للدقة التي امتازت بها الترجمات العربية وللتوفيق الذي توافر في اختيار المعاني والالفاظ في النقل وقد كان لانشاء بيت الحكمة والبحث عن الكتب الاجنبية في مظانها سواء في قبرس أو في الاستانة خير دليل على الاهتمام العربي بالتراث الاجنبي .

وقد ذكر ابن النديم (اسماء النقلة من اللغات إلى اللسان

العربي) و (أسماء النقلة من الفارسي إلى العربي) كما ذكر نقلة الهند والنبط وأسماء كتب الهند والفرس الموجودة بلغة العرب وأسماء كتب الفرس والروم في الاسمار والخرافات والتواريخ . وأشهر هؤلاء النقلة حنين بن اسحق وثابت بن قرة وابن المقفع وابن سهل .

وقد اهملت الترجمة مع الانحدار السياسي للعرب حتى جاء العصر الحديث وأخذت تنشط مرة أخرى عندما ارسل محمد علي باشا البعثات إلى اوروبا وقد كان لعودة رفاعة الطهطاوي من باريس وانشاء (مدرسة الالسن) أثر كبير في نشاط الترجمة واتساعها وبالرغم من أنها كانت لاغراض محمد علي باشا العسكرية وانحصرت في الطب والهندسة والفنون العسكرية إلا أنها كانت بداية موفقة أخذت تزدهر في نصف القرن التاسع عشر الاخير عندما بدأت بترجمة امهات القصص من الادب الانكليزي والفرنسي والروسي وقد عني بالقصص لانها أشد تأثيراً على النفس ، ولان العواطف الانسانية مشتركة بين البشر أجمع وقد غذت هذه القصص جانبا من الشعور الادبي والفني .

وقد تأخرت ترجمة المسرحيات إذ لم تظهر المسرحية الأوروبية إلا في عصر اسماعيل لأنه أغرم بتقليد أوروبا في كل شيء وافتتح مسرح الكوميدي لما احتفل بافتتاح قناة السويس واحضر الممثلين من أوروبا ليمثلوا على هذا المسرح . ثم شيد إسماعيل مسرح الازبكية وشجع على التمثيل كثيراً وكان يحضر بعض الروايات .

ولعل أول من اقتبس المسرحية الاوروبية هو مارون النقاش الذي استهوته لما كان في ايطاليا فبدأها باللغة العامية وقدمها في

بيروت واعتمد كثيراً على مسرحيات موليير ولم يقبل الجمهور أول الامر على المسرحية إلا أنه سار وراء ارضاء الجمهور فألف بعض المسرحيات الفكاهية ليسري ويرفه عنه .

ولا يزال عود المسرحية في العراق غضا لأن أكثر الجهود التي بذلت كانت فردية ، ولم تبذل في سبيلها جهود جدية . وقد كان للفرق العربية التي وصلتنا من مصر أعظم الاثر ، كان العراقيون يشاركون فيها ببعض النصيب . وقد اشتهرت بعض المسرحيات ونالت القبول والإعجاب من جمهور العراقيين لانها كانت تتجاوب وتيار القومية والرغبات العربية الصادقة في الاستقلال والحرية والتخلص من المستعمر فقد مثلت مسرحية (فتح الاندلس) و (فتح بيت المقدس) و (الحاكم بأمر الله) و (في سبيل التاج) وغيرها من المسرحيات الوطنية التي لها طابع قومي ومن أشهر المثلين الذين ارتادوا العراق يوسف وهبي وفاطمة رشدي وبشاره واكيم وامينة رزق وغيرهم من الممثلين وقد كان يجري التمثيل في المقاهي والملاهي التي كانت منتشرة في محلة الميدان وقد مثلت بعض الروايات في حديقة المعرض (وزارة الخارجية) .

ولعل أشهر رواية عراقية هي رواية (وحيدة) فقد شاهدتها طفلاً فامتلأ قلبي حقداً على الاستعمار وعلى جنوده الذين يعبثون بالكرامة والشرف والمقدسات ولا يقيمون للخلق العربي الاصيل وزنا وبالرغم مما كان يخالطها من فكاهة وسخرية بالمحتل وأعوانه إلا أن أثرها كان بعيداً في نفوس المشاهدين .

وقد كان من أوائل الممثلين في العراق الاساتذة حقي الشبلي عميد المسرح وفاضل عباس ومحيي الدين محمد وعبد الله العزاوي ويحيى فائق ومنعم الدوربي وفوزي محسن الامين وعزيز علي .

وتختلف المسرحية عن القصة بانها فن لا يعتمد على السرد والرواية إنما على استخدام الكلمات والمؤثرات الحية الأخرى كالموسيقى وحركات الممثلين وعلى مقدار الموهبة التي يمتاز بها المخرج في تنظيم هذه المسرحية. ويعتمد مؤلف المسرحية على العامل الانساني وعلى الآلات أكثر من أي فنان آخر ، فعليه أن يدخل في حسابه حركات الممثلين وإعجاب المشاهدين بينما كاتب القصة أو الشاعر يمكنه أن يبدع بعيداً عن هذه المؤثرات ويمكنه أن ينتج إذا توفرت له أدوات الكتابة .

وقد ساهم الاخ الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسي بترجمته هذه في دعم المسرح في العراق واختار مسرحية أوسكار وايلد. وقد بذل المترجم الفاضل جهداً عظيماً ومشقة ملحوظة إذ وفق في ترجمته توفيقاً ظاهراً فقد اتبع طريقة ناجحة في ترجمته إذ تقيد بالنص الانكليزي ولكن النص لم يستعبده إنما كان يستوعبه ويضفي عليه مسحة عربية . وقد ساعده على ذلك سعة اضطلاعه باللغة العربية وآفاقه الواسعة في اللغة الانكليزية ، إذ فهم نصوص المسرحية وتمثلها في ذهنه ثم صاغها في أسلوب سلس جميل حي ، ولو كان المؤلف حيا لسره ترجمة المسرحية إلى اللغة العربية . إن اختيار المترجم للمعاني وتوفيقه في انتقاء الألفاظ والترجمة الأمينة الصحيحة صفات يقدرها لها

قراء المسرحية . وإذا قدر لمؤرخ أن يؤرخ الترجمة والمترجمين كما أرخ ابن النديم فسيكون القيسي من أولئك المترجمين الذين يحتلون مركز الصدارة .

وفي الوقت الذي اهنىء الاستاذ القيسي على ترجمته وعلى توفيقه أترك الحكم للقراء الكرام وللمخرجين ولا أشك في أنه سيرضيهم في مسرحيته .

بغداد

يوسف عز الدين

تقديم المسرحية

من حق القارى علينا أن نتقدم إليه بتعريف وجيز بهذه المسرحية وبكاتبها وموضوعها .

وليس التقديم ـ والتقديم الطويل في بعض الأحيان ـ للمسرحيات بالامر الجديد في تاريخ الادب . فقد جرى ـ مثلاً ـ الاديب المعروف جورج برنادشو على أن يكتب بنفسه مقدمات طويلة لمسرحياته ، وقد يلحقها في بعض الاحيان بخاتمات أيضاً يشرح فيها لا موضوع المسرحية فحسب ، بل الكثير من آرائه في الفن والادب والحياة وبعض موضوعات الساعة . وقد جرى على هذا التقليد غير شو من الكتاب المسرحيين أيضاً .

وفي الظروف التي يمر بها بلدنا الآن أكثر من سبب يدعونا إلى هذا التقديم ، بعد أن اختلطت المفاهيم واختلت الموازين ، فاستأسدت الثعالب واستنسر البغاث بأرضنا وتصدر للعلم كل بليد وادعى المعرفة كل جهول ، حتى غدا الدجل علما والتهريج ثقافة والتضليل ارشادا والاسفاف فنا واللغو أدبا ، وصدق قول الرصافي : ـ

... صارت لئام الناس تعلو كرامها
وعاب لبيدا في النشيد بليدها

فما احوجنا إلى تقويم الاخطاء واشاعة الحقائق العلمية والمفاهيم الصادقة ووضع الامور في نصابها . وهذا ما دعانا إلى الاسترسال في شرح بعض المذاهب الاجتماعية في القسم الثاني من هذه المقدمة وبقدر ما يتعلق الامر بهذه المسرحية وحسب ما تقتضيه ظروف الساعة .

وعلى هذا جعلنا هذه المقدمة قسمين ، يتناول القسم الأول منها التعريف بهذه المسرحية وبكاتبها اوسكار وايلد ، ويتناول قسمها الثاني الحديث عن الفوضوية والفوضويين وهو موضوع المسرحية .

١ ـ المؤلف والمسرحية

أوسكار وايلد

مؤلف هـذه المسرحيـة اوسكـار وايلد اديب انكليـزي من أصـل ايرلندي . شأنه في هذا الامر شأن زميل معاصر له هو الاديب الشهير جورج برنارد شو .

ويجـدر بنـا في هـذه المنـاسبـة أن نـلاحظ ـ دون أن نقصـد إلى المقارنة ـ أن الـدارس لحياتي هـذين الاديبين الكبيـرين يرى بينهـما من تشابه الـظروف وتقارب الحـظوظ في الحياة ـ رغم اختـلاف مصيريهـما بعد ذلك ـ الشيء الكثير .

فمن أوجه التشابه هذه ما اوردناه من انحدارهما من أصـل واحد تقـريبا هـو الاصل الايـرلندي . ثم ما كـان من ولادتيهـا بتـاريخـين متقـاربين جـداً . ثم من نشـأتيهـا في بيئـة واحـدة وبـين بني قـومهم الايـرلنديـين واخذهمـا عنهم ما اشتهـر بـه هؤلاء الايـرلـنديـون ، أو بالاحرى ما حكمت به الظروف عليهم ، مِن نزعـة نحو الثـورة ومن نزوع إلى الفكاهة والتندر ، الجأهم إلى الأولى الحكم الاجنبي الطويل لبلادهم وتحكمه فيهم واسعفهم بالثانية طبعهم ومزاجهم لتعينهم عـلى احتمـال السلطان المكـروه ومـرارة العيش التعس والحـال البـائس في ظله .

ولكن وجه الشبه بين هذين الاديبين لم يقتصر على هـذه الناحيـة فحسب بل تعداها إلى ما هو أهمّ وابقى على وجه الزمان . فلقد قدر لهما أن يكونـا من عباقـرة زمانهما وان يتبوّآ في عـالم الادب الانكليزي ـ بل الانساني ـ ارفع منزلة وأعلى مكان ، وان يعتليا ـ ولعل هذا من أثر البيئة والوراثة ـ عش الفكاهة والدعابة دون منازع أو قرين ، ومكـان الصدارة ـ في كل زمان ومكان ـ بين اعلام السخرية الثائرة المتمردة أو الثورة الساخرة على كـل ما ألف النـاس من أفكار ومعتقـدات ، وأن تخضع لهما امارة الفن والبيان ويمتلكا ناصيـة الاستاذيـة في فني الحديث والحوار في اللغة الانكليزية منذ أن تكلمها الناس .

ولكن القدر الذي شـابه ظـروفهما وقـارب حظوظهـما عاد ففـرق بينهما ودفع حياتيهما إلى مصيرين مختلفين ونهايتين متباينتـين ، فأمـا شو فقد ولد في دبلن من ايرلندا قبل صاحبه وايلد بثمانين يوما (٢٦ تموز ١٨٥٦) ولكن الله انسـأ في اجله طويـلاً حتى شهـد مـطلع النصف الثـاني من القرن العشـرين ثم وافـاه الاجـل المحتـوم في انكلترا عـام ١٩٥٠ فمـات عزيـزاً مكرمـاً بعد اربـع وتسعين سنـة عاشهـا سعيدا هـانئـاً ـ إلا من بعض الشـوائب الـطفيفـة ـ اتحف الادب الانسـاني خلالها بأوفر انتاج وأروعه وابقاه على وجه الزمان .

أما وايلد فقد كتب له حظ آخر ومصير مختلف عن مصير صـاحبه رانت على نهايته سحب التعاسة والخيبة . فقد ولد في دبلن من ايرلندا في ١٥ تشرين الثاني عـام ١٨٥٦ ولكن القدر لم يمهله في هـذه الدنيـا طويلاً بل اخترم حياته وهو في الرابعة والاربعين من عمـره وفي كمال

نضجه واستوائه . وكان قد عاش الاربعين سنة الأولى من حياته عيشة هانئة سعيدة كصاحبه لم يذق ـ كما يقول اصدقاؤه ـ في يوم واحد منها طعم البؤس والشقاء . ثم وجه القدر إليه ضربة قاصمة فحدث ما نغص عليه عيشه في السنوات الاربعة الاخيرة من عمره . فكانت هذه السنوات في الحقيقة احفل ما في تاريخ الادب الانكليزي بالفجيعة واجلبها للشفقة واحقها بالرثاء وكانت بالنسبة إلى صاحبها سنوات خزي وسجن ونفي ومشربة . . . وشر ما فيها الصمت . ثم أتم القدر كتابه واطفأ شعلة هذه الحياة فمات وايلد في فرانسة عام ١٩٠٠ حزيناً بائساً غريباً كسير الفؤاد خائب الآمال . وهكذا حرم الادب الانساني من رافد غزير كان يزخر بالقوة والروعة والجمال ولو قدر له طول البقاء لجاد عليه ـ من دون شك ـ بأينع الثمار وأروع الآثار .

ولقد اعترف النقّاد وجمهرة القراء لشو ـ حال حياته ـ بالعبقرية والنبوغ واعترفوا به فيلسوفا مجدداً وكاتباً مبدعاً وأديباً خلاقاً وعلما من أعلام الفن الرائع الاصيل والسخرية اللاذعة الخلابة وأحلوه محله بين الادباء الخالدين . ولقد ساعد على خلق هذه الشهرة ونشرها شو نفسه بشخصيته الجبارة ونكاته الساحرة وسيرته الغريبة وطريقة حياته الخاصة بل وحياته الطويلة نفسها التي لم تفارقها الحيوية والنشاط حتى آخر أيامها .

أما أوسكار وايلد فقد كان نصيبه في هذا مختلفاً عن نصيب صاحبه أيضاً . فقد كان في حياته وأدبه على حد سواء عبقرية رائعة محيرة . يقول هسكت بيرسون في كتابه « اوسكار وايلد » ، وهو

باعتراف النقاد اوفى واوثق ما كتب عنه حتى الآن ، « لم تعرف اللغة الانكليزية أديباً اختلف الناس في أمره وفي تقدير مكانته كاختلافهم في أمر وايلد . وما من أثر أدبي في هذه اللغة غالى الناس في مدحه أو بخسوه حقه كآثار أوسكار وايلد . ذلك أنه ـ في حياته ـ فتن اصدقاءه وخلب البابهم حتى اذهلهم عن النقد الصحيح واغاظ أعداءه وسلبهم صوابهم حتى اخرجهم عن المنطق السليم . ثم جاءت محنته وما تلاها من سجن ونفي فاعطت اعداءه سلاحاً جديداً أجهزوا به عليه وكادوا يطمسون ذكره وقد نجحوا في ذلك فعلا إلى حد كبير ولكن إلى أمد قصير » . فإن وفاته المبكرة بعد أربع سنوات من محنته ثم نشر رسالته المؤثرة الشهيرة بعد ذلك بأعوام قلائل (عام ١٩٠٥) وهي الرسالة التي كتبها إلى احد اصدقائه في اخريات أيام سجنه والمسماة من الاعماق (De Profundis) سرعان ما جلب له العطف والرثاء ، وسرعان ما استيقظ ضمير الرأي العام فاعاد النظر في القضية من جديد بعيداً عن أجواء التعصب والاحقاد وعن أسباب الاثارة والبغضاء التي صاحبتها أول الامر ، فهاله ما وجد في التهمة التي وجهت إلى وايلد من افتعال وتلفيق وما جرى في محاكمته من تعسف وتشهير وتعمد لاهانته والحط من كرامته ثم ما كان في العقوبة نفسها من قسوة وشدة . فأخذت ـ اثر هذا كله ـ موجات العطف عليه تطغى على موجات الحقد والضغينة وحركة الانتصاف له تدحر حملات الافتئات عليه والانتقاص من قدره .

ونبّهت هذه الضجة ـ أول ما نبّهت ـ الاوساط الادبية في ألمانيا إلى هذا الاديب البائس فوجدوا في آثاره اصالة وابداعا وأدباً حقا وفنّا

خالصا فتهافتوا على ترجمة مؤلفاته ونشرها وإلى تمثيل مسرحياته . وكان استقبال القراء والنظارة لها حافلا واعجابهم بها عظيماً وسرعان ما ارتفع أدب اوسكار وايلد عند النقاد الالمان إلى عداد الادب العالمي الخالد (Classics) ومن ألمانيا زحفت شهرته إلى انكلترا ثانية . فعاود مواطنوه قراءة آثاره ونشرها ورفعوا عنه ما انزلوه به من حيف ومنحوه ما كانوا قد ضنّوا به عليه من نباهة الذكر وشيوع الاسم حتى صار ما يباع الآن من كتبه في أوروبا أكثر من أي مؤلف انكليزي آخر اللّهم إلاّ شكسبير .

وقد مضت الآن الايام ومضت معها الاحقاد وماتت الضغائن ، وغطى الزمان على عداوات الاعداء وصداقات الاصدقاء ولم يبق لنا من الرجل إلاّ حياته وعبقريته وأدبه وبهؤلاء تبّوأ اوسكار ـ عن جدارة واستحقاق ـ عرش الخلود مع ادباء الانسانية الخالدين .

وعلى هذه النواحي الثلاثة، حياته ، عبقريته ، أدبه ، سنقصر كلمتنا المقتضبة هذه .

ـ ب ـ

ولد اوسكار وايلد ـ كما قلنا من قبل ـ في ايرلنده عام ١٨٥٦ ، وكان أبوه السير ويلز وايلد (١٧٩٩ ـ ١٨٦٩) طبيبا مشهورا ومشهودا له بالتفوق والنبوغ في مهنته ، ولكن حياته ـ على الرغم من هذا ـ لم تخل من بعض الغراميات العنيفة التي تركت وراءها في سمعته بعض الظلال القاتمة . أما أمه (١٨٢٦ ـ ١٨٩٦) فكانت

ابنة احد رجال الكنيسة الايرلندية وكانت ـ شأن أكثر بني قومها ـ شديدة الوطنية متقدة الحماسة لقضية وطنها كما كانت على جانب طيب من الثقافة والذكاء . ساهمت في شبابها بأعمال الفدائيين والجمعيات الثورية ضد الانكليز ، وظلت بعد زواجها تساهم بالحركة الوطنية عن طريق الكتابة والتأليف . فقد كانت تنظم الشعر وتكتب في السياسة والاجتماع ولها في هذه الحقول آثار منشورة ، كما فتحت صالون دارها لاستقبال علية القوم من ساسة وادباء وقادة . وكان صالونها يعتبر من أحسن صالونات دبلن وارقاها مكانة واحفلها بالرواد .

في هذه البيئة الايرلندية الصرفة وفي هذا الجو العائلي والسياسي والثقافي نشأ اوسكار فأورثه والداه الفطنة والنبوغ ، وأخذ عن بني قومه نزعتهم إلى الفكاهة والسخرية ، وزرعت بطولات شعبه واخبار نضاله ضد المستعمرين بذور السخط والثورة والتحرر في نفسه وفكره ، وسنجد خلال السطور التالية أن هذه العناصر الثلاثة وهي النبوغ والفكاهة والثورة ، هي السمات المميزة لحياة وايلد كلها ، وهي السبب في نجاحه وشهرته وسعادته ، كما كانت هي السبب في نكبته وسقوطه .

وهنا يجب أن لا نغفل عاملاً آخر كان له ، ولا شك ، اثر بارز في التكوين العقلي لاوسكار وايلد . ذلك هو أثر العصر الذي نشأ وترعرع فيه اوسكار وهو القرن التاسع عشر . فقد كان هذا القرن بالواقع احق من سابقه بوصف الروائي الانكليزي شارلز ديكنز من

أنـه عصر الحكمة والضـلال ، عصر العقـل والهـوى ، عصر الايمـان والالحاد ، عصر الاستبداد والديمقراطية الحرة، وعلى الاجمال فقد كان عصر ثـورات وانقلابـات وتغيير في السيـاسـة والاقتصـاد والاجتمـاع والدين وفي جميع القيم الموضوعة والافكار الموروثة فقد شهد أول هذا القرن ذيول الثورة الفرنسية وما جـرت وراءها من هـزات ورجات في أنحـاء أوروبا ، وكـان هذا العصر في انكلتـرا بـالـذات عصر الثـورة الصناعية الكبرى ، والاصلاح السياسي وعصر دارون ، وفي اخريـاته وصل العصر الفكتوري ذروته بكل سماته المعروفة لدارسي التاريخ . ولا بد لعصر حافل بالاحـداث والغير مثـل هذا العصر أن يتـرك أثراً كبيراً في فكر متفتح نابغ مثل فكر اوسكار .

في هـذا العصر وهـذه البيئـة وبـين هـذه الاجـواء المختلفـة نشـأ وترعرع اوسكار فلما بلغ العاشـرة من عمره التحق بـإحدى المـدارس الابتدائية في دبلن ، ولم تكن علامات الفطنة واضحة عليه آنذاك وإن كـانت بـوادرهـا لا تخفى عـلى العـين الخبيـرة الفـاحصـة . فلم يكن اوسكار في هذه المدرسة تلميذاً اعتيادياً كبقية اقرانه الطلاب وإنما كان طرازاً وحده بينهم يختلف عنهم في كـل أطواره . فقـد كان كسـولاً في الـدروس مقصـراً في أداء الـواجبـات المـدرسيـة المـطلوبـة ، كـارهـا للمناهج المقررة ، برماً بالكتب المفروضة عليه ، عزوفـاً عن كل نـوع من أنواع الرياضة (لأنه ـ كما قـال فيها بعـد ـ لم يكن يريـد أن يركـل أحداً أو يركله أحد) لاهيا طيلة يومه بـالتسكع والتنـدر على الـطلاب والمـدرسين ، أو مشغـولاً بمحاولات فـاشلة لصيد السمـك في تـرعـة صغيـرة قـرب المـدرسـة أو منصـرفـاً إلى قـراءة الشعـر والادب وآثـار

اليـونان ، ولكنـه في نهاية العـام ، ـ وسط دهشة رفـاقه وعجبهم بـل وغيظهم أحياناً ـ يكون أولهم نجاحاً وأبرزهم تفوقـاً وأكثرهـم استئثـاراً بجوائز المدرسة ومنحها .

واعترافا بهذا التوفق منح اوسكار منحـة دراسية اهلتـه للقبول في كلية ترنتي في دبلن . حيث كان فيها ـ شأنه طيلة حياته الـدراسية ـ لا يعبأ بالدروس مطلقاً دون أن يعيقه هذا عن البروز والتفوق على اقرانه في نهاية العام فأثارة حقدهم وغيظهم عليه بسبب هذا وذاك .

وقـد حصل اوسكـار في هذه الكليـة على جـوائـز عـدة في اللغـة والادب والشعـر وفي التفوق بـاللغة اليـونانيـة ثم توجت حيـاته فيهـا بحصـوله عـلى منحة دراسيـة للدخول إلى كليـة ماكـدالن في جـامعـة اكسفورد بأنكلترا حيث دخلها عام ١٨٧٤ وقضى فيها أربع سنوات .

وإذا كـانت فترة السنوات الأربع التي قضاهـا في اكسفـورد هي ، باعترافه هو أسعد أيام حياته ، فإنها لدارسي حيـاته أهم الفتـرات في تـاريخ تكـوينه الفكـري . ففي هذه الفتـرة بـرزت الخـطوط العـامـة والسمات الاساسيـة لأوسكار وايلد رجـلاً وأديباً . إذ تفتحت خـلالها نفسيته وظهرت شخصيته وطارت شهرته وبدأت علائم عبقريته ومعها أيضاً غرائب بدواته وشذوذ طبعه تظهر للوجود فتطبع سلوكه بالطابـع الذي اتسم به حتى اخريات حياته والذي عرفته عنه الاجيال المتعاقبـة من بعد .

فـما أن دخل وايلد إلى اكسفـورد حتى لفت إليه الانـظار وأصبح شخصاً معروفـاً مرمـوقاً في داخـل الجامعـة وخارجهـا وانقسم زملاؤه

الـطلاب بشـأنـه إلى فئتـين متميـزتـين فمنهم من أخلص لـه المـودة والاعجاب ومنهم من جاهره بالعـداوة والبغضاء . وأول أسبـاب هذه الشهرة هو تفوق وايلد بالدراسة وبزه اقرانـه فيها ثم تهيؤ الاسبـاب له للسفر عام ١٨٧٨ صحبـة بعض اساتـذته إلى اليـونان وايـطاليا حيث تجول بين آثار الاغريق في الأولى وحـظي بمقابلة البـابا في رومـا . وقد اوحت له هذه السفرة بقصيدته « رافينا » التي نال بها ارفع جـائزة أدبية في اكسفورد والتي كشفت عن بواكير شـاعريتـه الاصيلة ونبوغـه المنتظر .

لكن عبقرية اوسكـار الحقـة لم تكن في نـظم الشعـر فقط ولكنهـا كانت في الدعابة وفي فن الحديث . وفي هذين الميـدانين اشتهـر ذكره وذاع صيته أول الامر قبل أن يشتهر ادباً أو شاعـراً . ومما لاشـك فيه أن عبقريته في هاتين الناحيتين قد نضجت وآتت ثمارها ابان حياته في اكسفورد . وكان زملاؤه طلاب الجامعة وأساتذته فيها والجامعة نفسها بتقاليدها وتزمتها الاهداف الأولى لسخـريته وتنـدره . وكانت أخـلاق العصر وأفكاره ومعتقداته مدار تهكمه اللاذع وبديهته الحـاضرة . ولمـا كان اوسكار محدثاً ممتازاً قادراً على حسـن عرض الاشيـاء بأنـه بلغ من مراده الشيء الكثير . وكان هذا السبب الثاني في اشتهار ذكره وهو لمـا يزل تلميذاً بعد .

والسبب الثالث وهو الاهم والابعد أثراً في تكـوين شخصيته هـو أن اوسكار تبنى حركة أنصار « علم الجمال » بل ونصب نفسـه رسولا لها وهي حركة تهدف إلى الخروج عما الف النـاس من أساليب العيش

والمعتقدات وقوالب الفن والشعر والادب وتدعو إلى التحليق بالفن والاجادة فيه وعدم ابتذاله في مطالب العيش أو سفاسف الحياة اليومية . وهو في اجماله مذهب الفن للفن .

ولم يكتف اوسكار أو استاذ علم الجمال ـ كما كان يحلو له أن يلقب نفسه ـ بالدعوة النظرية لهذا المذهب ، بل جعل من نفسه وطريقة حياته مثلاً حياً لهذه الدعوة . فكانت غرفته في الجامعة تحوي أفخر الاثاث وأجمله وأثمن التحف الفنية ، وتزدان بأزهار « عباد الشمس » والزنبق . وكان لباسه وهندامه تطبيقاً عملياً آخر لدعوته هذه إذ كان يظهر في الشوارع وفي الحفلات الليلية مرتديا سروالا قصيراً أخضر عليه الوشي ومعطفا من المخمل الاحمر وقد طرزت حواشيه وجوربا حريريا أسود وقميصاً أصفر فاقعا ، وقد أرسل شعر رأسه طويلاً ومجدولاً من الخلف . وفوق هذا وذاك كان لسانه اللاذع ونكاته الساخرة سلاحاً آخر في الدعوة إلى مذهبه . فمن أقواله في هذا الصدد « إن الاصلاح في الملابس خير من الاصلاح في الدين » و « إن ربطة عنق لوثر لاشد اثارة من مذهبه في الدين » . يضاف إلى كل ما تقدم غرور اوسكار وزهوه بنفسه وكبرياؤه واعتداده بأدبه وعبقريته . فمن أقواله الدالة على هذا « لا شيء يجدي على المرء كما يجدي الغرور » فلا عجب بعد هذا أن يشتهر أمر اوسكار بين الطلاب وفي المجتمع وأن يثور عليه المتزمتون الذين يرون في تصرفاته وأقواله وطريقة حياته خروجاً على العرف وتقاليد الجامعة واستهزاء بالاديان ومعتقدات الجماعة .

وقد بلغ الحنق بهؤلاء حداً كبيراً حتى انهم حاولوا مراراً أن

يتخلصوا منه بأي ثمن فاقتحموا غرفته مرة وحاولوا مرة أخرى اغراقه في بركة ماء عميقة . لكن اوسكار كان ضخم الجثة قوي البنيان متين العضلات فكان في كل مرة يرد مهاجميه خائبين وقد أشبعهم ضرباً واذى ، ثم يعود إلى طبعه الساخر بعد قليل فيدعوهم إلى الشرب معه من خموره المنتقاة معتذراً منهم لخروجه عن قواعد الرياضة الصحيحة لأنه لم يمارسها قبلاً ولم يكن يظن انه سيحتاج إليها يوماً ما . وقد عاد إلى ذكر هذه النقطة أيضاً بعد سنوات كثيرة فقال « أخشى أن يكون قد فاتني أن امارس شيئاً من الرياضة اللهم إلا لعب الدومنة في مقاهي باريس . . . » .

- ج -

وقد خرج اوسكار من اكسفورد إلى المجتمع الواسع وهو لا يملك إلا دخلاً ضئيلاً ورثه عن أبيه ، وإلا شهرته الواسعة التي سبقته إلى الناس ، كمحدث لبق ساخر بارع وشاعر منتظر لا بأس به على جانب كبير من الفطنة والذكاء . ومعها أيضاً شهرته أستاذاً في « علم الجمال » غريب الاطوار ، وشابا ضالاً لا يعبأ بالاديان والمعتقدات قد ركبه الزهو والغرور وركب الناس بالهزء والتنكيت وليس له إلى الصلاح من سبيل .

ومهما يكن من أمر شهرته هذه ، فقد هيأت له سبيل التعرف إلى كثيرين من مشاهير العصر في العلم والادب والشعر والفن ، فانغمس أوسكار في هذه البيئة الفكرية الراقية الحبيبة إلى قلبه وحسه . وما لبث بعد أن الف المحيط الجديد حتى اطلق ـ كعادته

دوما ـ للسانه ودعاباته العنان فنال فريقا بالهزء والتجريح وآخرين بالاطراء والمديح وألّب الناس له أو عليه . فمن ذلك مثلاً أنه سئل مرة عن رأيه في ممثلة شهيرة قامت بإحدى الروايات بدور امرأة شريرة فاسقة فأجاب « أنها لا تمثل أبداً . . إنها تنطلق مع سجيتها » وسئل مرة عن رأيه في الروائي الانكليزي الشهير جارلس ديكنز فأجاب « في الحقيقة ان المرء ليحتاج إلى قلب من الصخر ليستطيع أن يقرأ النهاية المفجعة التي انتهت بموت نيل الصغيرة دون أن يستغرق في الضحك » . وفي غمرة هذا النجاح الاجتماعي الجديد الذي حققه لنفسه ، اكتشف اوسكار أن الشهرة وحدها لا تقيم الاود وان موارده الضئيلة لا تكفيه في الاستمرار في حياته الجديدة طبقاً لمذهبه القائل « أنلني مناعم الترف ولك علي أن استغني عن ضروريات الحياة » ، فلهذا عمد إلى نشر مجموعة من شعره كانت في الحقيقة عبارة عن معارضات لقصائد ومقطوعات لشعراء انجليز وفرنسيين قدماء ومعاصرين .

وقد قابل النقاد ـ إلا فئة قليلة منهم ـ هذا الديوان بالذم والاستهجان على اعتبار انه معارضة وتقليد لاشعار سابقة وأنه اصداء فارغة لاصوات خالدة . لكن جمهرة القراء لم تكن على رأي النقاد فقد اقبلت على هذا الديوان اقبالا منقطع النظير مفضلة الصدى على الصوت والتقليد على الاصل .

وقد ساعد على انتشار الكتاب واقبال الناس عليه شخصية اوسكار نفسه وهو يذرع شوارع لندن بهيئته الضخمة وجسمه المترهل

وبهندامه الغريب وثيابه الاغرب بألوانها الفاضحة وازيائها المشهرة وقد زين صدره بزهرة عباد الشمس الكبيرة الصفراء حتى غدا رسول الجمال هذا حديث لندن كلها فتناولته مجلاتها بالنقد والتشهير وكان موضع التنكيت والتجريح في احدى مشاهد اوبرا « الصبر » من تأليف كلبرت وسليفان .

ولم يكن اوسكار جاهلاً بالضجة التي تثيرها تصرفاته بل كان يقوم بها تعمداً بقصد الظهور . سمع مرة رجلاً من المارة يقول « انظروا هذا هو اوسكار وايلد الاحمق المجنون » فالتفت اوسكار إلى رفيق كان معه وقال « عجباً . . . ما اسرع ما يصير المرء معروفا في لندن » .

إلا أن هذه الشهرة وهذه الغرائب لم تعد عليه بنفع ولم تحقق له مكسباً . فما زالت موارده شحيحة كما كانت ، بعيدة عن كفايته وسد احتياجاته ، لهذا ازمع عام ١٨٨٤ السفر إلى امريكا للمحاضرة والتجوال فيها . وفي الدنيا الجديدة أطلق العنان لغرائب سلوكه وشذوذ طبعه وبدوات عبقريته . وغالى في غرابة لباسه وزينته كما افرط في أحاديثه ودعاباته ونوادره حتى بلغت رحلته ذروة النجاح . وكانت فاتحة هذه الدعابات جوابه حين سأله أحد رجال الكمارك عما إذا كان عنده شيء مما ينبغي أن يطلعهم عليه فقال . . . « لا شيء سوى عبقريتي » . . . ثم مضى على هذا المنوال في رحلته كلها . وكان نصيب امريكا والامريكيين من دعاباته الشيء الكثير ، فقد سخر منهم ومن طريقة معيشتهم ومن فقرهم بالثقافة .

فمن ذلك قوله « ان استغراق امريكا في هم سخيف هو التجارة وقلة احتفالها بالجانب الشعري في الاشياء إنما يرجع كله إلى سبب واحد ، هو أن الشعب قد جعل بطله القومي رجلاً يعترف على نفسه بأنه لا يستطيع أن يكذب » وقال عن رجال التعدين أنهم « أحسن رجال امريكا اناقة » ودُعِيَ مرة إلى افتتاح منجم للذهب وقدم له مثقب فضي صغير . فلما تمت عملية الافتتاح نزل مع العمال إلى جوف المنجم وهناك . . . « جلسنا إلى وليمة فاخرة . فكان اللون الأول من طعامنا هو الخمر . وكان الثاني خمراً والثالث خمراً . » . . . وخرج العمال من المنجم سكارى يترنحون وخرج اوسكار مرحا جذلان ينكت ويتندر . وفي هذه المناسبة تقرر تسمية المنجم باسمه « منجم اوسكار » ويعلق هو على هذا فيقول « وخرجنا من المنجم وقد سرقوا اسمي وبدلا من أن يقدموا لي عدداً من الاسهم في هذا المشروع ، اكتفوا بإعطائي المثقب الفضي للذكرى ولم أجد عندي محلا يتسع له إلا عروة سترتي . وقد وضعته فيها فعلاً . . . » .

وعاد اوسكار من امريكا بنجاح كبير وشهرة عريضة ولكن بمال قليل . ومال في رجوعه إلى باريس فقضى فيها ثلاثة أشهر استمتع خلالها بالتعرف على مشاهير رجال الفكر الفرنسيين أمثال هيجو وزولا وبورجيه وغيرهم . ولكنه أيضاً أتى في خلالها على ما جمعه في امريكا من مال فعاد إلى انكلترا خالي الوفاض إلا من النوادر والذكريات الممتعة .

وفي أثناء إقامته في باريس نظم كثيراً من المقطوعات الشعرية وألف رواية شعرية على نمط روايات شكسبير واسمها « اميرة بادو » أو

« فيرانتي جيدو » ورواية شعرية أخرى عنوانها « مأساة فلورنسة » وقد ضاعت منه هاتان الروايتان ولم يعثر عليهما إلا بعد وفاته حيث ظهرت الأولى مترجمة إلى الالمانية على مسارح برلين ووجدت أجزاء قليلة من الثانية ولما يعثر على بقيتها بعد . وفي هذه الفترة أي حوالي عام ١٨٨٠ ـ ١٨٨٣ الف مسرحية « الفوضويون » التي نقدم ترجمتها الآن ، وكان اوسكار وايلد قد تعرف في رحلته إلى امريكا على الممثلة الامريكية ماري اندرسن وكانت من شهيرات الممثلات في ذلك الزمان فأهداها هذه المسرحية لتمثلها في نيويورك . ولما علم بعد عودته إلى انكلترا أن تمثيلها سيبدأ في صيف عام ١٨٨٣ لم يتردد اوسكار عن ركوب البحر ثانية قاصداً نيويورك ليشهد عرض روايته هناك . لكنه سرعان ما عاد من هذه الرحلة خائب الامل خالي الوفاض . إذ لم تحظ مسرحيته إلا بالفشل الذريع ولم يستمر عرضها إلا اسبوعا واحداً فقط .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ممثلة امريكية اخرى واسمها ماري بيسكوت اعادت بعد أعوام تمثيل هذه المسرحية فنجحت فيها أكبر نجاح شهدته مسرحية انكليزية في امريكا في ذلك الزمان واستمر عرضها في نيويورك وحدها عاما كاملاً بلا انقطاع ثم طافت بها الممثلة بعد هذا كل أنحاء امريكا فكان النجاح المتزايد حليفها في كل مكان . وتنبه النقاد آنذاك إلى هذه المسرحية فاعترفوا لها بالروعة والابداع واحلوها مكانها بين خوالد المسرحيات .

وإذ قضت هذه الرحلة الامريكية الثانية على آمال الثراء التي كان يتصورها اوسكار وإذ ظل معينه من المال ناضبا لا يشفي غليله ،لهذا لم

يجد بدا من العمل فاشتغل ناقداً أدبياً لمجلة « بـال مال كـازيت » لمدة أربع سنين .

وقـد شهدت هـذه الفترة تغييـراً محسوسـاً في حياتـه فقد شـارف اوسكار على الثلاثين من عمـره وازداد خبرة ونضجـاً فحد من تـطرفه وغلوائه ومال إلى القصد والاعتدال في لباسه ومشيتـه ولكنه من جهـة ثانية لم يقلل شيئـاً من كبريـائه واعتـداده بنفسه . فقـد سئل مـرة : ـ « كيف قضيت يـومك يـا اوسكـار ؟ » فـأجـاب « اني قضيتـه أراجـع قصيدة من قصائـدي ، فلما انتصف النهار حـذفت منها شـولة واحـدة ولكنني عدت في المساء فأرجعتها إلى مكانها » .

وفي هذه الفترة بالذات تعـرف على فتـاة ايرلنـدية وهـام بها حبـا وانتهى به المطاف إلى الزواج بها عـام ١٨٨٤ ، وكانت زوجـه هذه ـ واسمهـا كونستـانس ـ ابنة محـام ايرلنـدي . وكـانت فتـاة جميلة طيبـة القلب وعـلى شيء من الثراء اتـاح لهما شـراء دار في لندن والاستقـرار فيها .

ولا ندري بالضبط هل أن اوسكار قال حكمته المأثورة « ان خـير أساس للزواج الناجح هو سوء التفاهم المتبادل » قبل زواجـه أم بعده ولكننا ندري عـلى وجه التـأكيد أن زواجـه كان نـاجحاً وسعيـداً رغم اختلافه عن زوجه بالمزاج والتفكير . فقد كانت زوجه امرأة ديّنة ذات تقـوىٰ وورع وكـانت حييـة تحب الصمت والهـدوء عـلى العكس من زوجهـا الذي لا يؤمن بـالاديان ويحب الضجـة والبروز والـذي كانت موهبته الحـديث والكلام . ولكن عـلى الرغم من هـذا التناقض بـين الـزوجـين فقـد كـان اوسكـار يحب زوجـه حبـا جمـا واننـا لنجـد لـه

مقطوعات شعرية رقيقة يخاطب بها زوجه . وقد اهدى إليها كتابه « بيت الرمان » ـ وهو أول كتاب نشره بعد زواجه ـ بمقطوعة شعرية عاطفية غاية في الرقة والعذوبة . لكن هذا الحب لم يكن ليعفيها من بعض دعاباته ونكاته فمن ذلك مثلاً انها كانت تحدثه مرة عن احترامها العميق للمبشرين الذين يدعون للمسيحية بين الهمج في غابات افريقيا فقال لها اوسكار : ـ « هل تحبين هؤلاء المبشرين الدعاة يا عزيزتي ؟ ألم تعلمي أن دعوتهم ليست إلا وليمة مقدسة اعدت لذوي المتربة والمسبغة من أكلة لحوم البشر ؟ فمتى اشفى أكلة لحوم البشر على الموت جوعاً ، شاءت رحمة الله الواسعة أن ترسل لهم طائفة من هؤلاء المبشرين ليقيموا بهم اودهم » فقالت له زوجه « رباه انك لا تقول هذا جاداً يا اوسكار . . » .

وفي مناسبة أخرى قال لها « ألست معي يا عزيزتي في أن الطبيعة ماهرة ؟ إنها لم تكن تعرف منذ ملايين السنين أننا سنلبس نظارات . ومع ذلك فانظري إلى الطريقة التي وضعت بها آذاننا ؟ » .

وقد رزق من زواجه ولدين كان مولها بحبهما وكانا يحبانه ويعتبرانه اكمل الآباء لما يفيض به عليهما من القصص والامثال . وقد أوحى له حب هذين الغلامين بنشر كتابه « بيت الرمان » (١٨٩١) الذي يقول في مقدمته أنه « لم يوضع للاطفال الانكليز ولا للجمهور الانكليزي » . وهو مجموعة من الأقاصيص والحكايات التي كان يقصها على ولديه . وعلى الرغم من روعة أسلوبه في هذا الكتاب وطرافة سرده للقصص والامثال وعلى الرغم من أن بعض المعجبين بأوسكار يعتبرون هذا الكتاب خير كتبه ، يقول

اصدقاؤه المقربون أن هذه الحكايات قد فقدت في كتابتها الكثير من الروعة التي كان لها حين كان يقصها اوسكار على ولديه منطلقاً في قصه مع سجيته . ومع ذلك فهي في الحقيقة من أروع أمثالها من الحكايات ولا تدانيها إلا أقاصيص هانس كريستيان اندرسن .

وفي هذه الفترة أيضاً (١٨٨٥ ـ ١٨٩٥) تقريباً بلغ اوسكار وايلد ذروة الشهرة والنجاح أديباً وشاعراً وكاتباً . والأهم من هذا كله متحدثاً وساخراً . فلقد غطت عبقريته بالمحادثة والكلام على موهبته بالكتابة والشعر حتى عرفته مجتمعات لندن متحدثاً ساحراً بل عبقرياً فذا في هذا المجال لم تنجب اللغة الانكليزية له مثيلاً . فقد بدأت بواكير هذه العبقرية تتفتح في اكسفورد ثم تعهدها صاحبها بالعناية والاهتمام حتى نمت ونضجت مع الايام . فقد ظل اوسكار حياته كلها يتكلم ويتهكم ويتحدث ويسخر وينثر دعاباته وحكمه اينما سار وحيثما ذهب . وإننا لنعلم مقدار سحره وتأثيره في الناس إذا علمنا أنه لم يكن جميل الصورة أبداً اللهم إلا ما ترى من عينيه الوضاءتين وجبينه الوضاح أما عدا ذلك فكان شاحب اللون ضخم الجثة متراكب اللحم وكانت صورته هذه تنفر الناس منه كما ينفرهم أيضاً كبرياؤه وغروره ولقب أستاذ علم الجمال الذي ادعاه لنفسه . ولكن مع هذا كله فكان صوته الرخيم وضحكته الرقيقة الصافية وحديثه العذب الرائق كانت تصطلح لا على نفي شعور النفور منه فحسب بل وعلى جذب الناس إليه والاحاطة به إذا ما دخل مكاناً وبدأ يتكلم . وكان يتكلم في كل شيء ، فما من موضوع إلا طرقه واضفى عليه من لباقته ومرحه ما يروع وما يذهل وما يؤسر القلوب والاسماع وكان ذهنه

اليقظ وخياله الخصب وذكاؤه الفياض وبديهته الحاضرة تمده بمعين جزل لا ينضب من الافكار العميقة والاقوال المأثورة ومن الفكاهات والملح وغرائب القصص والامثال والنوادر تتدفق على لسانه كالسيل المنحدر فتسحر سامعيه وتأخذ بألبابهم وتنسيهم انفسهم حتى لتمر عليهم الساعات الطوال وهم يستمعون كالمسحورين لا يحسون بالنصب ولا بمرور الوقت . وهو بينهم يتحدث ويتحدث دون توقف أو انقطاع ودون كلل أو ملل .

ولم يكن أوسكار يستأثر وحده بالحديث بل كان مستمعاً جيداً أيضاً ، يقظ الذهن حي النفس ماهراً في توجيه الحديث بأسلوب يتيح له أن يستثير ما في عقول جلسائه . فكان يستطيع دائماً أن يكيف نفسه حسب حاجة الموقف أو رأي الجماعة فكان يجد ويهزل ، ويتفلسف ويمزح ، ويسلي ويعظ ، ويعزي ويمرح ، ويُضحك ويغيض في آن واحد . وكان سريع الخاطر حاضر الجواب كثير الحفظ جيد الرواية يخلط النادرة بالشعر والحكمة بالنكتة والعبرة بالدعابة والحقيقة بالخيال والاسطورة بالواقع . حتى كان طرازاً عبقرياً وحده في فني الدعابة والحديث . قال عنه المستر بيرسون بأنه « كان أكبر أمراء الفكاهة بالادب ، وكان أغزر المحدثين خيالا واحضرهم بديهة واجرأهم على الدعابة وكان أيضاً الطفهم مرحاً وحبوراً » وهي شهادة سبق أن شهد له بها قبل المستر بيرسون كبار معاصريه الذين فتنوا بموهبته الخارقة وعبقريته الفذة ومنهم صاحبه الاديب الساخر المتعالي جورج برنارد شو .

ومع هذا فقد كان اوسكار رقيق الحاشية منصفاً لا يمس أحداً

بإساءة تؤذيه ولم يستعمل قط كلمة نابية وان اقتضاها المزاح وكان أيضاً يشارك الناس في التندر على نفسه راضياً ، وليس أدل على هذا من قوله : ـ « يحرص الناس على أن ينظروا إلى انفسهم نظرة كلها جد . . . وهذه هي الخطيئة الأولى » .

وبعد ، فقد ينكر قوم على اوسكار وايلد مقامه الادبي أو يغمط آخرون قيمة آثاره . ولكن ما من امرىء يستطيع أن يقلل من عبقرية وايلد في ميدان الدعابة والحديث ولن يستطيع امرؤ أن يقدم في هذين الميدانين أحداً عليه من السابقين واللاحقين .

ـ د ـ

وإذ لم يكن في وسع اوسكار وايلد ان يعتاش من الحديث والكلام وحده ، فقد انصرف للعمل والانتاج الادبي . فاشتغل أولا ولمدة عامين رئيساً لتحرير مجلة « عالم المرأة . ثم انصرف بعدها للتأليف فنشر في هذه الفترة أغلب رواياته ومقالاته وأشدها روعة وأكثرها خلوداً . وقد بدأ بنشر رواياته « شبح كنترفيل » و « جريمة آرثر سافيل » و « أبو الهول من دون سر » كما نشر له جملة مقالات في النقد الادبي تحت عنوان « اهواء » تناولت كثيراً من اوجه الفن والادب وموازين النقد ومن بينها مقال عن شكسبير تحت عنوان « صورة و . هـ » . وكان كل هذه المقالات على شكل حوار يدور بين الكاتب وأحد الاشخاص . وقد احتفل وايلد لهذه المقالات فجاءت عميقة الفكرة واسعة الشمول بارعة الحوار رائعة البيان شيقة الاسلوب حتى ليتهمه اعداؤه بأن الصنعة في هذه المقالات قد غطت على المعنى وان

الاحتفال بالاسلوب اضـاع عليه حقـائق أفكاره . وهـو قول فيـه من المبالغة والـظلم شيء كثير فستـظل هذه المقـالات من خير مـا كتب في الانكليزية في « أدب النقد » من حيث الفكرة والاسلوب .

وفي عام ١٨٩٠ اصدر اوسكـار روايته الشهيـرة « صورة دوريـان كراي » وهي أطول رواياته وأنجحهـا وأكثرهـا أهمية وأصـدقها تمثيـلاً لطريقة وايلد في ادارة الحوار واحفلها بالآراء الغريبة والتوجيهات الشاذة والنقد بل وبالاستخفاف بكل ما تعارفت عليه الجماعة آنذاك من قيم أدبية وفكرية ، ولهذا سبّب صدورها موجة من السخط العـام ضدهـا وضد مؤلفها وثـورة عارمـة عليهما من بعض المتـزمتين الـذين يدعـون نصرة الفضيلة والاخلاق . ومثل هذه الثورات الادبية أمـر مألـوف في الحياة الادبية الإنكليزية حتى يومنا هـذا . ولكن من المألـوف أيضاً أن تنتهي هـذه الثـورات في الغـالب إلى عكس المقصـود منهـا فتؤدي إلى تمهيد طريق الشهرة والانتشار للكاتب والكتاب وهـذا ما حـدث فعلا بـالنسبـة إلى روايـة « دوريـان كـراي » فـازداد الاقبـال عـلى قـراءتهـا وانتشرت انتشاراً واسعاً قل أن حظيت به رواية انكليزية من قبل ومـا تزال كذلـك حتى الآن ، وإن تغيرت النـظرة نحوهـا الآن عما كـانت عليه من قبل فغدت تعتبر عملاً أخلاقياً صرفا بعد أن كان ينظر إليهـا على انها كتاب « غير أخلاقي » . ومن الجدير بالذكـر هنا أن اوسكـار كـان يرى أنـه « ليس في الكتب ما هـو اخلاقي وغـير اخلاقي ، بـل هناك كتب جيدة أو غير جيدة فقط » .

وروايـة « دوريان كـراي » من الكتب الجيدة دون نـزاع . فمهما اختلف الرأي سـابقاً وحاضراً حول تثمينها من الوجهـة الاخلاقيـة فهو

يتفق على تقدير قيمتها الفنية وروعة بيانها ومتانـة أسلوبها فهي بـإجماع النقـاد « تحفة نـادرة من الفسيفساء الفني الـرائـع » وإنها « أول روايـة فرنسية تكتب باللغة الانكليزية » .

والأهم من كل ما تقدم أن فريقـا من مؤرخي الادب الانكليزي يضيفون إليها ميـزة خاصـة أخرى إذ يـرون أنها أكثر روايـات اوسكار وايلد كشفا عن شخصيته وأصدقها تعبيراً عن حقيقة مشـاعره وآرائـه في الادب والحياة . وانها تفوق من هـذه النـاحيـة رسالتـه الاعترافيـة « من الاعماق » . وحجة هذا الفريق أن اوسكار وايلد ، وهو القائل من قبـل « لن تظفـر من المرء بحقيقـة نفسه فعـلاً حتى تعطيـه قنـاعـاً يختفي وراءه » قد طبق هذا القول على نفسـه فعلاً فـاستعار شخصيـة بطل الروايـة اللورد هنري وتـون قناعـاً اختفى وراءه ليعرض للنـاس حقيقة نفسه وآراءه ومشـاعره دون مـا خوف أو ريـاء . وليرسم أيضـاً صورة كاملة لشخصيتـه في مرحهـا وفلسفتها وهـزلها وجـدها وشـذوذ أطوارها ، وقد وصف في هذه الـرواية عبقـريته في المحـادثة وطـريقته بإدارة الكلام والحوار وصفا بديعاً دقيقاً شامـلاً عجز عن الاتيـان بمثله كل من حاول ذلك من معاصريه .

وفي عـام ١٨٩١ استمع اوسكـار إلى محـاضـرة عن الاشتـراكيـة ألقاها صاحبه الاديب الشهير برنارد شو فاوحت له هذه المناسبـة كتابـة رسالة عن الاشتـراكية وهي ـ كـما يقول صـديقه روبـرت روس ـ : ـ « ليست رسالة فريدة في كتـابات اوسكـار وايلد فحسب ، بل إننـا لا نبالغ إذا قلنا إنها فريـدة في الادب الانكليزي كله . فـما من موضـوع

من موضوعات الساعة مما يشغل أفكار المثقفين إلا وعرض لـه اوسكار ومسه مسا رقيقاً وافياً ووضعه في موضعه الصحيح بقوة أسلوب وسحر بيان يأسران العقول دون أن يخل هذا بوحدة الموضوع وترابطه » .

والفكرة الاساسية في هذه الفصول هي الدعوة إلى اشتراكية صحيحة تهدف إلى حرية الفرد وسعادته وازدهار شخصيته ليكون عضواً نافعاً في مجتمعه بارادته وحريته هو لا بالقسر والارغام . وقد كان وايلد في السياسة اشتراكياً مخلصاً وفي انظمة الحكم جمهورياً صادقاً . ولكنه كان أيضا فوق هذا وقبله مؤمنا بالفرد وحريته ووجوب عدم ذوبان فرديته في المجموع بل وجوب قيام المجموع على خدمة الفرد وتحقيق سيادته وكان مؤمنا أيضا بوجوب بقاء الفضائل المثلى والقيم الطيبة وسيادة القانون قائمة في المجتمع وإلا تصبح الاشتراكية في نظره غوغائية دكتاتورية فوضوية . وقد لخص آراءه هذه بمقطوعته الشعرية : « الجوع المقدس للحرية » فقال :

لقد رضعت طفلا لبن الحرية . ونشأت على حب الديمقراطية ولم اخلص الحب والايمان إلا للدولة الجمهورية . حيث لا يعلو فيها فرد متوج على اقرانه

بل يكون كل فرد فيها سيد نفسه .
ولكن مع هذا فإن الضجة القائمة الآن حول الحرية .
لتجعلني أفضل حكم الرجل الواحد .
الذي يطيعه الجميع ، من أن ندع الغوغاء .
تخون حريتنا بقبلة الفوضى .

فإني لا يمكنني أن احب هؤلاء الذين .
يريدون بأيديهم القذرة أن يركزوا العلم .
الاحمر في الشوارع المزدحمة . والذين تزول تحت .
حكمهم الطاغي الجاهل كل مظاهر الفن والثقافة
والرفعة والشرف . والذين لا تنمو في اجواء حكمهم
غير الخيانة والغدر وغير الموت .
يزحف خلسة على اقدام دامية خفية .

ـ هـ ـ

وقد شارف اوسكار وايلد على الاربعين من عمره وهو ما زال ضالاً لم يهتد إلى الطريق الصحيح الذي يحيل عبقريته في الحديث إلى أدب مكتوب الا وهو المسرحية .

ولكنه اهتدى إلى سواء السبيل في اخريات عام ١٨٩٢ وكان آنذاك في باريس . فكتب فيها مسرحيته « سالومي » باللغة الفرنسية واهداها للممثلة الفرنسية الشهيرة سارة برنارد لتمثلها في لندن . وقد قصدت لندن فعلاً لهذا الغرض ولكن الرقيب منع تمثيل الرواية في لندن فعادت ومثلتها في باريس وبرلين وكان نجاح التمثيلية عظيماً لم يسبق لمسرحية انكليزية ـ دون استثناء شكسبير ـ أن نالت منالها .

وبعد سالومي كتب مسرحية « مروحة الليدي وندرمير » ولم تكن في الحقيقة إلا ضرباً من المهارة في التوفيق بين بعض الفكاهات والنوادر التي كانت تجري على لسانه . بيد أن نجاحها كان سريعاً ومتجدداً على الايام ، ثم تبعها بمسرحية « أمرأة ذات خطر »

ومسرحية « الزوج المثالي » وأخيراً توج هذا الانتاج بـأروع مسرحيـاته وهي « أهمية اسم ايرنست » وهي قطعة من الفكاهة الخـالصة والمـرح الصرف والبهجة الرائعة وقد اشتهر اوسكار بآثاره الأولى شاعـراً جيداً وناثراً ممتازاً وناقداً عظيماً وساخراً لاذعاً « ولكنـه لو لم يكتب مسـرحية ايرنست لظل بعيـداً عن مملكته الحقـة ولما صـدقت الاجيال مـا يروي عن ملكته في التسلية والمرح والحبور » ويقـول المستر بيـرسون « انـه لم يسبق هـذه المسرحيـة نظير في الادب الانكليـزي ولما يـظهر لهـا شبيـه بعد . فهي تقف في صف وحدها . فلقد قدم لنا شكسبير في « هنري الثامن » مهزلة الحياة الانسانية . وقدم لنا بن جونسون وكـولد سميث مهـزلة الـطباع البشـرية وقـدم كونكـريف وشيريـدان ووايلد نفسه في مسرحياتـه السابقـة مهزلـة السلوك الاجتماعي . وقـدم لنا برنارد شو مهزلة الاخلاق ولكننا في مسرحية ارنست نجد للمرة الأولى والوحيدة مهزلة الهزل نفسه » .

وطبيعي بعد هذا أن يكون نجاح المسرحية عظيماً ساحقاً لا يدانيه نجـاح وان ترتفـع بكاتبهـا إلى أعـلى ذروات المجـد والشهـرة وشيـوع الاسم . وهذا ما كان فعلاً .

- و -

وبهـذا النجاح المستمـر المتجـدد ازداد وايلد شهـرة وثـراء ومجـداً ولكنـه مع الاسف ازداد معهـا أيضـاً غـروراً وتيهـا وشعـوراً بـالخلود والـطمأنينـة والنفوذ كـما ازداد شراسـة طبع وغـرابة أطـوار ، وتعاليـا واستخفافاً بخصومه وناقديه وبأنداده وأصدقائه على حد سواء . فأوغر

بلسانه وسلوكه صدور الناس عليه وألبّهم ضده حتى استطاعوا أخيراً أن يهدموا من تحته عرش مجده وشهرته ومعه سمعته وحريته وكرامته ، وأخيراً حياته أيضاً . فكان النجاح الذي رفعه إلى أعلى درجات المجد والسعادة والخلود هو الذي دفعه إلى دركات الهاوية حيث الفضيحة والحبس والعار . وبهذا صدق عليه قوله مرة : ـ « ليس في الحياة سوى مأساتين إحداهما أن لا ينال المرء ما يبتغيه . والاخرى أن ينال ما يبتغي . وشرهما هذه الاخيرة . . . وهي المأساة حق المأساة » ولقد نال فعلاً ما كان يبتغي وكانت نهايته مأساة انسانية فاجعة حقاً .

ويطول بنا الكلام إذا ما أردنا الخوض في تفاصيل الحوادث التي أدت إلى نكبته . وقد لا نصل بعد هذا التفصيل إلى نتيجة مرضية . فالاختلاف هنا واسع وكبير بين الانصار والخصوم . ولكن الوقائع الثابتة تقول إن اوسكار رفع دعوى قذف ضد المركيز كوينزبري ولكن السخط العام الذي اثاره اوسكار على نفسه استطاع أن يغير مجرى المحاكمة فيخرج منها مجرماً مداناً بعد أن دخلها شاكياً . فقد وجهت له تهمة الشذوذ الجنسي وحكم عليه بسببها بالاشغال الشاقة لمدة سنتين .

والذي يطلع على تفاصيل التهمة وطريقة المحاكمة وشدة العقوبة على عمل لم يكن معاقباً عليه في انكلترا حتى عام ١٨٨٥ ثم المعاملة القاسية التي شهدها أوسكار في سجنه ، يلحظ بوضوح مقدار التعصب والتجني وروح العداوة والبغضاء الكامنة وراء هذه الاعمال . ويكفي للتدليل على هذا أن نعلم إن اوسكار ادين واعتبر

مجرماً وهوجم في الصحف والمجتمع شر هجوم وأحرقت كتبه ومنع تمثيل مسرحياته أو رفع عنها اسمه، جرى كل هذا قبل أن يصدر حكم القضاء فيه ، وهذا ـ لعمر الحق ـ أمر يأنف منه الضمير الانساني الحر . وأكثر من هذا فإن القاضيين اللذين اصدرا حكمهما على اوسكار بالحبس اقاما في مساء اليوم نفسه حفلة عشاء فخمة في احدى نوادي لندن على شرف نجاة اللورد كوينزبري وتحطيم هذا الاديب البائس .

وفي سجن ريدنك قرب لتدن قضى أوسكار ثمانية عشر شهراً في سجن انفرادي مزعج يجتر آلامه وذكرياته . . . لا يقرأ ولا يكتب . . . وكان شراً من هذا كله الصمت المطبق من حواليه . . . الصمت الطويل المرهق لشخص كل موهبته في الحياة هي التحدث والكلام .

وبعد هذه الفترة الموجعة توسط له بعض أصدقائه فسمح له بالكتابة والقراءة فجاد على الاجيال برسالته الخالدة « من الاعماق » وهي رسالة طويلة خاصة كتبها إلى صديقه روبرت روس واوصاه أن لا ينشرها إلا بعد ستين عاماً من وفاته . بيد أن روس رأى من الوفاء لسمعة صديقه أن ينشر بعض أجزائها العامة بعد وفاة كاتبها بخمسة أعوام . وما تزال اجزاؤها الاخرى محفوظة مع وصية اوسكار في المتحف البريطاني تنتظر النشر في اخريات عام ١٩٦٠ .

ولقد قدمنا القول بأن الاختلاف بين النقاد على أشده في أي من الاثرين . « صورة دوريان كراي » أو « رسالة من الاعماق » أصدق تمثيلاً في التعبير عن حقيقة آراء وايلد ومشاعره ومكنونات نفسه .

فالذين يفضلون « دوريان كراي » للاسباب التي وقفنا عليها قبلا ينفون عن رسالة « من الاعماق » صفة التعبير الصحيح عن روح كاتبها وأسلوبه لانه كتبها بظروف خاصة وبقصد الاعتراف وتصحيح رأي الناس فيه لذلك فهي صورة منمقة مفتعلة لم تظهر فيها إلا السمات التي أراد لها صاحبها أن تظهر للعيان والتي يأمل من ورائها الصفح والغفران. ومن وجهة فنية صرفة فإن هذه الرسالة لا تمثل أسلوب وايلد في الكتابة والانشاء لانها رسالة جادة حزينة ولهذا جاءت خلوا من العنصر الاساسي الذي يميز كتاباته ويمثل روحه الحقة إلا وهو عنصر المرح والسخرية .

لكن البروفسور « مين » يرى ـ وهو على حق ـ أنه « مهما قيل في المفاضلة بين « من الاعماق » و « دوريان كراي » ومهما قيل في هذه الرسالة من عيوب فإنها ستبقى رسالة رائعة الاسلوب صادقة التعبير صادرة من أعماق قلب شجي ونفس حزينة متألمة وهي لهذا صورة حقة لصاحبها في فترة من الزمان كما كانت « دوريان كراي » صورته في فترة أخرى . وليس في الادب الانكليزي كله رسالة لها من الاصالة والروعة والتأثير الحزين ما في هذه الرسالة الاعترافية الشجية » .

- ز -

وبعد خروج وايلد من السجن سكن في فرانسة ولكن وطأة النكبة وفداحتها وآلام السجن كانت قد تركت آثارها في نفسه وكيانه فتدهورت صحته وساء حاله ونفذ ماله وتنكر له صحبه القدامى

واشتد عليه الضيق والمسغبة ولكنه مع هذا كله ظل يقظ الذهن جوال الفكر خصب الخيال لم يفقد مرحه وفكاهته وحضور بديهته وحبه للتندر والدعابة حتى أخريات حياته .

ففي فترة منفاه هذه نظم قصيدة رائعة لمنظر شهده بنفسه أثناء سجنه وهو منظر رجل يساق إلى الاعدام متهماً بقتل زوجه وقد وصف اوسكار هذا المنظر واللحظات الاخيرة القصيرة من حياة هذا الرجل في الدنيا ومشاعره فيها وصفا مؤثراً بالغاً وهي بلا شك قصيدة انسانية رائعة ، قل أن نجد لها في الآداب الأخرى شبيها في عذوبة اللفظ وسهولة الاداء مع صدق الشعور بالحزن وعمق الاحساس بالاسى وبالغ الالم والتأثر لتلك المأساة الانسانية الدامية .

أما عن مرحه وفكاهته في هذه الفترة فقد جاءت إليه احدى الاديبات الفرنسيات وكانت قبيحة دميمة الشكل فلما سلمت عليه قالت له : « لا تخف يا اوسكار واعترف بأنك أمام أقبح امرأة في فرانسة » فرفع أوسكار إليها بصره فلما رأى بشاعة خلقتها انحنى لها بكل أدب وقال : « عفوا يا سيدتي عفوا . بل بالعالم كله . . . بالعالم كله يا سيدتي » .

وجاءه مرة أحد أدعياء الادب ، وكان يظن في نفسه العبقرة والنبوغ ويتوهم اضطهاد الناس له وغمطهم حقه في التقدير والثناء والشهرة فقال لاوسكار : « هناك يا سيدي مؤامرة ضدي . . . مؤامرة من الصمت والسكوت . . . فماذا أفعل يا اوسكار ؟ » وكان اوسكار

يعرف حقيقة هذا الشخص فأجابه على الفور : « اسرع واشترك فيها يا صديقي . . . اشترك فيها » .

ولكن هذه الشعلة المتوقدة من الذكاء والمرح ما عتمت أن انطفأت فجأة في عيد ميلاده الخامس والاربعين في ١٦ تشرين الثاني من عام ١٩٠٠ اثر اصابة اوسكار بالتهاب السحايا الدماغية فخسر الادب العالمي بفقده انساناً وعبقرياً وأديباً فذا قلما يجود الزمان بمثله .

٢ ـ موضوع المسرحية

الفوضوية والفوضويون

نشر اوسكار وايلد مسرحيته هذه عن الفوضويين منذ زهاء الثمانين عاما . أي قبل تبلور المذاهب الاشتراكية إلى أشكالها الحديثة السائدة في العالم الآن . وقد هدف منها ـ قبل كل شيء ـ إلى رسم صورة أدبية فنية لظاهرة سياسية معينة سادت المجتمع الاوروبي آنذاك وأثرت فيه أعظم تأثير ، واختار مادة صورته هذه من بعض ما كان يجري في الروسيا في اخريات القرن التاسع عشر .

وكان مما أوحى إلينا بترجمة هذه المسرحية ونشرها في هذه الايام(*) ، الضجة القائمة حول الفوضوية والفوضويين وتقارب حوادث هذه القصة من هذا الموضوع بالذات . ولهذا نجد لزاما علينا أن نتطرق في هذه المناسبة إلى توضيح بعض اوجه الشبه والخلاف بين الآراء والمذاهب التي يكثر حولها الكلام هذه الايام . والذي يحملنا على هذا هو الخلط الواضح عند بعض الكتاب بين مذهبي الشيوعية والفوضوية رغم كونهما ـ من الوجه العلمية والتاريخية مذهبين مختلفين متميزين . ومرد هذا الخلط هو كشف النقاب عن الحوادث الدامية

(*) تمت ترجمة هذه المسرحية وكتابة مقدمتها منذ شهر آب من عام ١٩٥٩ ولكن لم يتيسر نشرها إلا هذه الأيام (أخريات عام ١٩٦٠) .

التي وقعت في أكثر بلدان العراق والتي بلغت ذروتها في مجازر الموصل وكركوك ونعت الناس للقائمين بها بالفوضويين . ولما ثبت بعدئذ بما لا يقبل الشك أن القائمين بها هم الشيوعيون أو من يدور في فلكهم أو يتصل بهم بسبب من الاسباب ، اقترنت هاتان اللفظتان ـ الشيوعية والفوضوية ـ في الاذهان وجرتا معا على الالسنة والاقلام ، حتى ذهب بعض الكتاب والباحثين إلى اعتبار لفظة الفوضوية مرادفة للشيوعية أو نعتا لها ، وتحايل كتاب آخرون فاتخذوا من هذه اللفظة مخرجاً يتخلصون به من ذكر الشيوعيين بالذات عند الحديث عن القائمين بتلك الاعمال المفجعة ، بل واتخذ منها الشيوعيون انفسهم ستاراً فضفاضاً يتبرؤون خلفه مما ارتكبوه من جرائم ودرعاً يدرؤون به عن انفسهم سهام الاتهام ويرمون بها غيرهم ذات الوسط واليمين لا ذات الشمال طبعاً !! .

ومع أن الحق الواضح الذي لا مراء فيه هو أن القائمين بتلك الاعمال البشعة المفجعة ـ من أية فئة كانوا ـ لا يمكن أن ينعتوا إلا بالبربرية والوحشية والفوضوية وبانعدام الخلق والدين والكرامة والانسانية ، ومع هذا فإننا يجب أن نسمي الاشياء بأسمائها الصحيحة دون مخاتلة أو التواء ، فإن اطلاق لفظ (الفوضويين) على كل فئة تقوم بأعمال الارهاب والتخريب والقسوة والعنف فيه الشيء الكثير من التعميم والبعد عن التعبير العلمي الدقيق ، ولهذا وجب علينا أن نميز بين المعنى العلمي لكلمة « الفوضوية » كمذهب سياسي ثوري تمخض عنه القرن التاسع عشر وبين المعنى اللغوي العام لكلمة الفوضوية التي تعني العبث والتحلل من سيادة القانون والنظام . وأن

نميز ـ ثانياً ـ بين هذا المذهب السياسي وبين أعمال الارهاب والاجرام والقسر التي تستعملها بعض الحكومات كسياسة مقررة لها ، أو تلجأ إليها بعض الفئات السياسية ومنهم الشيوعيون كوسيلة للوصول إلى الحكم أو للبقاء فيه . وأن نميز ـ ثالثاً ـ بين الشيوعية والفوضوية كمذهبين سياسيين وتيارين فكريين مستقلين .

وإذا كنا قد عرفنا مصدر الخلط بين هاتين الفكرتين على الصعيد المحلي ، فإن مصدر الخلط بينهما على الصعيد العام وفي مجالات الدراسة والبحث هو ـ أولاً ـ انهما وكثيراً من المبادىء السياسية الأخرى ، انبعثت جميعها من منبع فكري واحد ، ونشأت وتبلورت في ظروف متشابهة وكانت كلها تهدف إلى أهداف متماثلة . إلا أنها اختلفت ـ فيما بعد ـ في الوسائل والاساليب ، وكان لهذا الاختلاف اثره العظيم في افتراق هذه المذاهب عن بعضها بعضاً وتمييز كل منها عن الآخر تمييزاً بينا واضح المعالم .

والسبب الثاني هو ان الشيوعية اللينينية ـ الستالينية المطبقة الآن في العالم الشرقي ـ وهي شيوعية محرفة كثيراً حتى عن شيوعية ماركس نفسها ـ قد اعتمدت الارهاب والقسوة والابادة والعنف أساليب مشروعة لتحقيق أهدافها وارتضتها وسائل مقبولة تبررها غاياتها . وهذا واضح كل الوضوح من كتابات زعماء الشيوعية أنفسهم مثل لينين وماوتسي تنغ ، وهو أيضاً ثابت ومشاهد في التطبيق العملي للشيوعية في روسيا منذ أربعين عاماً وفي التطبيقات الحديثة لها في دول أوروبا الشرقية وفي الصين وفي أقليم كيرالا في الهند ، وأخيراً ـ

ونرجو أن يكون آخرا ـ أثناء التجربة المرة الاليمة في العراق في مطلع عام ١٩٥٩ .

إلا أننا إذا أخذنا بالمفاهيم العلمية الصحيحة يتضح لنا أن الفوضوية مذهب فكري وسياسي واجتماعي أثَّر وتأثر إلى حد كبير بالشيوعية ولكنه مع هذا مذهب مستقل بذاته وأن الارهاب في ظل الحكم الشيوعي ليس من المذهب الفوضوي في شيء وإنما هو طريقة في الحكم وسياسة مقررة لها مبرراتها الفلسفية وتخريجاتها الايدولوجية وبدونه تنقلب جنة العمال جحيماً رأسمالياً لا يطاق . . . ! في حين أن المذهب الفوضوي يقدس حرية الفرد وسيادته ويشجب كل مظاهر القسر والارغام في الحكم . وما الارهاب في المذهب الفوضوي إلا عرض طارىء على المبدأ وليس أصلا فيه ، دفعت إليه بواعث وظروف معينة وظل محدوداً وبقدر الحاجة إليه ولا يجوز التوسع فيه اطلاقاً . وهذا ما سنحاول تبيانه في السطور التالية :

ولكن قبل الشروع في الكلام عن الفوضوية يقتضينا موضوع هذه المسرحية أن نبدأ أولاً بالتمييز بين الفوضوية وبين مذهب فكري آخر هو النهلستية (أو العدمية) .

فإن التقارب والتماثل بين هذين المذهبين من القوة والتشابك بحيث يدفع بالكثيرين إلى الخلط بينهما واطلاق اسم الواحد منهما على الآخر .

ويبدو لنا أن اوسكار وايلد نفسه لم يسلم من هذا الخطأ عند تسميته هذه المسرحية باسم « فيرا أو النهلستيون » وجعله المتآمرين

فيها من جماعة النهلست في حين أن جو المسرحية ونفسيات ابطالها وما اجراه المؤلف على السنتهم من كلام وما دفعهم إليه من تصرفات ، كلها ـ كما سنرى ـ أقرب إلى المذهب الفوضوي وأشد التصاقاً به وتمثيلاً له منها للنهلستية . ولهذا فقد تعمدنا ترجمتها بالفوضويين وفضلناها على اسمها الاصلي .

ولكن ما هي النهلستية ؟ وما هي الفوضوية ؟

الحركة النهلستية (Nihilism و Nihil في اللاتينية ومعناها العدم أو اللا شيء . ومن ثم ترجمها البعض بالعدمية واتباعها بالعدميين) في الاصل حركة فكرية صرفة لا صلة لها بالسياسة . وهي تدعو إلى التأكيد على حرية الفرد وسيادته ، وتبعاً لذلك فهي تدعو إلى رفض كل القيم والمفاهيم التي تحد من استكمال هذه السيادة أو تحول دون الحرية التامة .

وقد نشأت هذه الحركة حوالي منتصف القرن التاسع عشر في روسيا ولم تتهيأ لها ظروف الحياة في غيرها من البلدان . وكان الرائد الاول لهذه الحركة الناقد الادبي الشاب ديمتري ايفانوفتش بيساروف (١٨٤٠ ـ ١٨٦٨) . أما الفضل في اذاعة هذه الفكرة وشيوعها فيعود إلى الروائي الروسي الشهير ترجنيف في روايته « الآباء والأبناء » (١٨٦٢) .

لم يكن بيساروف يهتم بالسياسة اطلاقاً ، ولكنه كان شاباً أديباً مرهف الحس حر التفكير ساءه ما كان عليه الفلاحون الروس في عهد القنانة من بؤس وذل وعبودية ، فثارت نفسه على تلك الاوضاع ودعا إلى الغاء رق الارض وتحرير الفلاحين منه .

لكن صدمة الواقع كانت شديدة قاسية عليه وذلك حين تم الغاء الرق في روسيا (عام ١٨٦١) فوجد أن الاصلاح المنشود لم يحقق أملاً ولم يحسن حالاً بل عاد بالاوضاع إلى اسوأ مما كانت عليه فخاب أمله وتضاعفت ثورة نفسه وثار على كل القيم والمبادىء السائدة آنذاك ودعا إلى نبذها جميعاً وتحرير الفرد تحريراً تاماً من كل قيد أو سلطة ليكون الفرد نفسه سيد نفسه وسلطانها دون ما رقيب عليه أو حسيب .

وقد اثرت آراء بيساروف على أجيال عدة من الناشئة الروسية ممن كانوا على شاكلته رقة حسن وحرية تفكير وحدة شعور بالوطنية ورغبة بالاصلاح ، فنمت دعوته وامتدت فروعها واتسع نطاقها وكان طبيعياً ـ تبعا لهذا ـ أن تصطبغ الدعوة بألوان جديدة لم يردها بيساروف ولم تخطر له على بال . فقد توسع تابعوه في رفضه للمفاهيم والقيم الفكرية التي تقف دون حرية الفرد وانطلاقه ، واشملوها إلى المبادىء الاجتماعية والاخلاقية ، ودعوا ـ من أجل تحقيق استقلال الشخصية الفردية وتحررها ـ إلى التحلل من الروابط الاخلاقية أو الفضائل البورجوازية ـ كما كانوا يسمونها ـ وعدم الانصياع في الحياة إلا لما تمليه النظرة العلمية أو المنطق العلمي الموضوعي المجرد من احكام وفروض . وقد أدى هذا التطرف إلى اشمئزاز الناس من الدعاة لهذه الحركة وانصرافهم عنها .

ثم توسع التابعون مرة أخرى فأضفوا على الحركة لونا سياسيا ونادوا بالخروج على كل سلطة دينية أو زمنية لانها في نظرهم قيود تحول دون تحرر الفرد وانطلاقه الكامل نحو الحرية الفردية . ثم غالت

فئة ثالثة من الانصار والتـابعين وعـلى رأسها الثـائر الارهـابي النهلستي سـرجي نيشـاييـف (١٨٤٧ ـ ١٨٨٢) ودعت لا إلى رفض الـقيـم الفكرية والخروج على الروابط الاخلاقية والعلائق الاجتماعية وانكـار الحكـومة والـدين فحسب ، بل وأيضـاً إلى وجـوب الايمـان بـالثـورة والعنف وتحطيم البورجوازية وأخلاقها ومفاهيمها ونظمها الاجتمـاعية والسياسية بالقوة وازالتها مرة واحدة وللابـد فيزول بهـذا كل مـا يعيق ازدهار حرية الفرد وكمالها .

ومن هنـا بدأت الحـركة النهلستيـة تختلط بـالحـركـة الفـوضـويـة الارهـابية وتـذوب فيها شيئـاً فشيئاً حتى تـلاشت في اخريـات القـرن التاسع عشر لتترك المجال من بعـدها للحـركة الفـوضويـة والحركـات الثورية الأخرى المشابهة لها أو المتفـرعة منهـا . وكلها في الحقيقـة ردود فعل سلبية يائسة مصدرها اليأس من امكان اصلاح الاحوال بـالطرق الايجابية العلمية الصحيحة .

الفوضوية :

الفوضوية ـ كمذهب سياسي ـ ليست مجرد ارهـاب واجرام وتـآمر وقتل وعنف كما قـد يوحي بهـذا اسمها لاول وهلة . فـما الارهاب في الحقيقة إلا وجها واحداً من وجوه هذا المذهب ، طغى بطبيعته المثيـرة وما خلَّفه في نفوس الناس وأفكارهم من ذعر وهلع ، على بقية وجـوه المـذاهب الأخرى ، وغلب عليهـا حتى وسمت كلهـا بسمتـه وغلبت عليها صفته .

أما الفوضوية في حقيقتها العلمية فهي تيار فكري سياسي أصيل من أهم التيارات الفكرية والسياسية التي خلقها التطور الاجتماعي في القرن التاسع عشر واصدقها تمثيلاً له واكثرها تفوقاً على غيرها لتلبسها بطابع الضرورة المنطقية .

والفوضوية بعد هذا مذهب واسع الآفاق متشعب الاطراف يضم بين دفتيه شيعا كثيرة وفلسفات مختلفة ونظريات شتى ، انتشر لفترة طويلة من الزمن قاربت القرن الواحد في الروسيا وأوروبا وعبر أيضاً إلى القارة الامريكية . ولهذه الاسباب كان فلاسفته ودعاته كثيرين في الزمان والمكان مختلفين في النزعات والافكار تبعا لاختلافهم في النشأة والثقافة والظروف . فمنهم من كان يدعو إلى سيادة العدل الاجتماعي في مجتمع طوبائي خيالي كالفوضوي الانكليزي المستر وليم كودوين (١٧٥٩ - ١٨٣٦) والمفكر الفرنسي برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٤) ومنهم دعاة الثورات والانقلابات كالفوضوي الروسي الشهير ميشيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) والمفكر الالماني ماكس ستيرنر (١٨٠٦ - ١٨٥٦) ، ومنهم دعاة الشر والعنف الذين لا يرون في غير الارهاب والقتل وسيلة للاصلاح ولا يعترفون للاخلاق والقانون بسلطان أمثال الفوضوي النهلستي نشاييف الذي مر ذكره من قبل . وكان مِن الفوضويين مَنْ كان عدواً للعنف والقسوة داعية للتسامح والتعاطف مبشراً بالمحبة والاخوة متأثراً بالروح المسيحية نازعاً إلى ما يشبه الصوفية كالاديب الروسي الشهير تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) الذي تغذى بآرائه زعيم الهند العظيم المهاتما غاندي ، رجل « اللاعنف » في العالم في القرن العشرين بلا

نزاع ، واستاذ حكيم الهند وفيلسوف الساسة جواهر لال نهرو . وكان بين الفوضويين أيضاً المفكر الحر الرزين الامير كرويوتكن (١٨٤٢ ـ ١٩٢١) الذي انتهت إليه وبه زعامة الفوضوية في العالم . . . وغير هؤلاء من المفكرين والادباء والشعراء كثيرون .

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا الحيز الواسع الذي تشغله الفوضوية في تاريخ الفكر السياسي في القرن التاسع عشر والصعوبة البالغة التي يتعرض لها من يحاول ـ مثلنا ـ ايجاز الكلام عنها في بضعة سطور .

ولكن مع هذا فمن الممكن القول بأن هؤلاء الفلاسفة على اختلاف مشاربهم ودعواتهم يصدرون من مصدر واحد ويهدفون إلى هدف واحد وإن اختلفوا بين هذا وذاك في طرق الدعوة ومناحي التفكير . فهدفهم جميعاً هو حرية الفرد وسعادته في مجتمع حر عادل لا قسر فيه ولا ارغام . أما لجوء البعض منهم إلى سلوك طرق العنف والاكراه لتحقيق هذه الاهداف فقد ظهر كرد فعل مقابل لوسائل الارهاب التي كانت تلجأ إليها الحكومات ضدهم .

وكانت نقطة الانطلاق في المذهب الفوضوي وكثير من المذاهب الثورية الأخرى في القرن الماضي هو عجز مبادىء الحرية السياسية والاقتصاد الحر التي جاءت بها الثورة الفرنسية ـ والتي قامت على أسس منها أكثر الدول في ذلك الزمان ـ عن تحقيق الحرية الحقة للفرد والجماعة معا . فكانت كل هذه المذاهب الثورية ترى أن هذه المبادىء لا تخرج عن كونها حريات نظرية وصياغات قانونية ولفظية غير قابلة للتطبيق عملا أو غير مؤدية إلى النتيجة المنشودة منها حتى

وان طبقت . أما السبيل الصحيح للحرية الحقة ، حرية الفرد والجماعة ، فهو المساواة الاجتماعية وازالة الفوارق بين الافراد والطبقات . ولكن الصعوبة هي في التوفيق بين المساواة الاجتماعية وبين حرية الفرد أولاً ، وبينهما مجتمعا وبين سلطان الدولة ثانياً . فإذا كانت المساواة الاجتماعية هي الضمان الحق لحرية الجماعة فإنها تستبع حتما تضييقا على الفرد وحدا من حريته . وللحد من حرية الفرد تحقيقا للمساواة الاجتماعية لا بد للدولة من اللجوء إلى طرق القسر والارغام ، وبهذا تكون الدولة قد هدمت بعضاً من حرية الافراد ، وبطريق القوة ، الامر الذي يتناقض بل يهدم مفهوم الحرية الذي تسعى إليه هذه المذاهب .

وقد كانت الحلول الاشتراكية لهذه المشكلة تهدف إلى قهر هذا التناقض والتغلب عليه . في حين كان الحل الفوضوي يقضي بالصدوف التام عن الدولة وعدم الاعتراف بأية سلطة كانت ، ثم بناء مجتمع جديد وفقا لمفاهيم لا تعترف بوجود الدولة وقوانينها وبوليسها ومحاكمها ، وإنما يقوم بين أفراده اتفاق تعاقدي حر لا مكان فيه للارغام والسلطان . ومن هذا العرض الموجز السريع يتضح مدى التقارب بين الافكار الاشتراكية والافكار الفوضوية . ويؤكد هذا التقارب الوثيق بين هذين المذهبين أيضاً استمدادهما معا فلسفتيهما من الفلسفة الهيكلية . ومحاولة كلا المذهبين التأكيد على أن هذه الفلسفة تؤدي منطقيا إلى تأييد المبادىء التي يدعو إليها . ومن الحق أن نقول أن الخط الذي يجمع بين هيجل ـ فيورباخ ـ ستيرنر ـ باكونين ليس اقالة اصالة من خط هيجل ـ فيورباخ ـ ماركس ـ انجلز ـ لينين .

وكان يمكن لهذا التقارب بين الفوضوية والاشتراكية أن يكون أوثق رباطا وأعمق أثراً لو لم تهيء الظروف كلا من ميشيل باكونين وكارل ماركس . فكما طغت شخصية ماركس على الحركة الاشتراكية وطبعتها بأفكاره الخاصة ، فكذلك طغت شخصية باكونين على الحركة الفوضوية وطبعتها بآرائه وأفكاره . ولاختلاف هذين الرجلين اختلافا بينا في المزاج والتفكير والشخصية ، فقد كان للصراع بينهما أكبر الاثر في توسيع شقة الخلاف بين الحركتين . ولم يكن صراعهما صراعا عقائدياً خالصاً ، بل الواقع أن الجانب العقائدي في هذا الصراع كان اضعف الجوانب وأقلها بروزاً ، وإنما كان صراعاً شخصياً وعاطفياً . . . وماليا أيضاً بالنسبة إلى ماركس .

كان باكونين شخصية جبارة طاغية وكان موفور الذكاء واسع التجربة فياض الحيوية جبار الهمة عظيم النشاط عنيفا في تصرفاته متطرِّفاً في آرائه. وباكونين روسي أصيل معتز بروسيته ، ينحدر من عائلة نبيلة وقد اشتغل في شبابه ضابطاً بالجيش الروسي ثم استهوته الآراء الثورة فأقبل عليها بنشاط عنيف . ولما اوشك امره أن ينكشف ترك الجيش وهرب من روسيا إلى أوروبا . وبعد تجوال كثير قبض عليه الالمان وسلموه إلى الروس فنفاه القيصر إلى سيبيريا ، حيث قضى فيها بضعة أعوام ثم استطاع الهروب منها إلى اليابان ثم إلى القارة الامريكية فالعودة منها إلى أوروبا ثانية بعد هذه الرحلة الشاسعة ، حيث انغمس مجدداً وكليا في الشؤون الثورية في أوروبا ، وكان خلف أكثر الثورات الناشبة في ذلك الحين في ايطاليا وفرنسة وألمانيا .

وفي هذه الفترة التحق به هارب روسي جديد هو الشاب الثائر سرجي نيشاييف الذي تقدم بنا ذكره . فاستطاع هذا الشاب أن يقنع باكونين بآرائه وخططه الارهابية حتى تبناها باكونين ودافع عنها واذاعها ، وبهذا قدر للفوضوية الارهابية أن تندمج في التيار العام للحركة وتطغى عليها وتغطّي ما عداها .

وفي هذه الفترة أيضاً تم التعارف بين باكونين وماركس . وقد اعجب ـ أول الأمر ـ كل منهما بالآخر . ولكن ما أن اكتشف ماركس قابليات باكونين وقوة شخصيته وموفور همته وتمتعه بالصفات التي يفتقر إليها كارل نفسه حتى بدأت عقارب الحقد والحسد والغيرة تنهش قلب ماركس من هذا القرين القريع . وسرعان ما ذر قرن الخلاف بينهما بعد ذلك بقليل .

فقد كان باكونين رجلا حقاً ، له شخصية ساحرة مؤثرة ، وقابلية خارقة في جذب الجماهير إليه واقناعهم بسهولة بوجهات نظره . فقد كان خطيباً جماهيريا رائعاً ومحدثاً لبقا وجليساً لطيفاً . وكان أيضاً واسع الافق رضي النفس حليماً صبوراً عطوفاً على أصحابه ومؤيديه لا يبخل عليهم بمال أو جهد . وكان أيضاً ذا حيوية عارمة ونشاط مذهل ، ثائر الروح حاد العاطفة عنيف المزاج يستلهم هواه أكثر مما يتبع عقله . وكان فوق كل هذا سلافيا روسيا نبيلا ، يعتز ببلاده وبني قومه ويؤمن ـ كجميع الروس في كل الازمان ـ بأن خلاص العالم وانقاذه لن يتم إلا على ايدي الروس « فمن موسكو » ـ كما كان يقول ـ « سوف تندلع النيران التي تدك عبودية أوروبا وتدفن قيودها

تحت خرائب البورجوازية ، ومن بحر الدماء والنيران سوف ترتفع فوق موسكو نجمة الثورة الحمراء عالية في السماء تهدي الانسانية إلى طريق التحرر والخلاص . . . » .

وكان كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) على العكس من قرينه تماما . فما من رجل من رجال الفكر أو السياسة في تاريخ العالم كله اجتمعت فيه عيوب الشخصية و « عقد النقص » كما اجتمعت في كارل ماركس نفسه . فقد كان يهوديا تجمعت في نفسه قوى هائلة من المقت والكراهية والحقد والسخرية وسائر خلائق المرارة والكبت والخبث التي اشتهر بها بنو جنسه ، وكان فاشلا في حياته الدراسية لم يستطع الحصول على شهادة علمية إلا بعد الجهد الجهيد و « بالشراء » من جامعة تعطي دروسها بالمراسلة . وكان فاشلاً في حياته العامة لا يقدر على عمل أبداً ، وصفه أبوه الحاخام مرة فقال « أن كارل لا يمكن أن يعيش إلا طفيليا عالة على غيره » . وكان مع هذا مريض الجسم اسلمه النهم في الاكل والافراط في الشراب إلى أمراض المعدة والكبد ، وتركت هذه الامراض طابعها في جسمه ووجهه واطرافه دمامل وقشورا تنفر منها العيون وتتقزز منها النفوس ، وكان فوق هذا أيضاً زري الهيئة ، مهمل الهندام ، قذر الملابس ، وقد تركت هذه الامراض والعقد النفسية منضافاً إليها آلام الاضطهاد والمقاومة والنفي التي لاقاها في حياته ، آثارها على هذه العبقرية المدللة (إذ كان كارل طفلاً مدللاً في اسرته ، وظل كذلك طول حياته) فنشأ ماركس نفوراً منطوياً على نفسه عزوفاً عن الناس خائفاً منهم حاقداً عليهم ينفس عليهم صحتهم و « نظافتهم » واستواءهم ، وكان كسولا لا يعمل إلا

بالالحاح الشديد أو بالاغراء المادي الكبير ، ولم تكن له القدرة على مخالطة الناس والتحدث إليهم واقناعهم ، ولا على مخاطبة الجماهير واستمالتهم .

بيد أن الجانب البارز في شخصية ماركس كان الجانب العقلي فقط ، فقد كان بحاثة عميقاً ومفكراً كبيراً وكاتباً مقنعاً . استطاع أن يؤثر بأفكاره في مجرى التاريخ العام ، على الرغم مما في نظرياته من قصور بسبب اقتصارها على التفسير المادي للتاريخ فقط واهمالها العوامل الاخرى التي لا تقل ولا ريب عن العوامل الاقتصادية أثراً في تفسير التاريخ وتطويره . ولولا كسل ماركس وتوانيه لكان من الممكن أن تمتد نظرته إلى غير المجتمعات الصناعة السائدة في أوروبا آنذاك ، وأن يكون انتاجه أوفر ونتائج بحثه اشمل. ولقد اعترف صاحبه وزميله « انجلز » بأنهما بالغا في تقدير اهمية العوامل الاقتصادية « وأننا مسؤولان عن كوننا قد اعطينا اتباعنا انطباعا عن أهمية العامل الاقتصادي أكثر مما يستحق . ولقد اضطررنا إلى هذا معارضة لخصومنا الذين كانوا ينكرونه بالمرة . ولو امتد الوقت بكارل لكانت لنا الفرصة لانصاف العوامل الأخرى في الحركة التاريخية» .

ومما يجب علينا ذكره في مجال المقارنة بين ماركس وباكونين وكان له اثره في الخلاف بينهما ، اختلاف نظرتيهما إلى السلافيين . فقد كان باكونين كما رأينا روسيا معتزاً بأصله وقومه ، على حين كان ماركس يشعر بكراهية عميقة للسلافيين عامة وللروس منهم خاصة ، بسبب روحهم البربرية وتخلفهم في المدنية وانعدام التقاليد الثقافية والجذور

الحضارية لديهم . وكان ماركس ـ وهو ربيب الثقافة الغربية وسليل شعب عريق في القدم يدَّعي التفوق على كل الشعوب والاجناس بل يدَّعي أنه شعب الله المختار ـ يعتز بأصله وقومه وبقيمهم الفكرية والحضارية ويكره الروح البربرية وتصرفاتها حتى ولو كانت من أجل الثورة . وكان يحلم ببناء مجتمع أفضل وحياة ارغد واكمل ، وكان يرى أن من الحمق أن ننتظر قيام مثل هذا المجتمع في الاقوام البدائية المتأخرة كالروس آنذاك . وكان يمقت السلافيين لأنهم قوم فلاحون وليسوا كالاوروبيين عمالاً صناعيين . وكان الفلاحون ـ في نظر ماركس ، وحتى الفلاحون الاوروبيون منهم ـ غير قادرين على العمل المبدع الخلاق الضروري للبناء الثوري ، وكان يراهم ـ بسبب رجعيتهم وخرافاتهم واخلاصهم لسادتهم ـ عائقاً دون تحقيق الثورة العمالية المنتظرة ، وأن السبيل الوحيد لاصلاحهم هو أن تجرهم الطبقات العاملة الصناعية وراءها جراً وأن تصهرهم ـ عن طريق التعاونيات وما اشبه ـ ببوتقتها لتحيلهم من جديد إلى رجال صالحين . ومن هنا كانت عقيدة ماركس بعدم الجدوى من قيام تنظيمات ثورية في المناطق الفلاحية وفي البلدان المتأخرة صناعيا ، وكان يُخرج من حسابه الروس وأوروبا الشرقية والجنوبية ويركز همه في انكلترة وفرنسا والمانيا لتقود الثورة وتفتح طريق التحرر للعالم . في حين كان باكونين بالاضافة إلى ما علمناه من اعتزازه بأصله الروسي واعتقاده بأن نور الهداية للعالم لن يخرج إلا من موسكو ، فإنه كان يرى أن الرغبة في الحرية قدر مشاع بين كل الناس وفي كل صقع من اصقاع العالم على حد سواء .

وكان طبيعياً بوجود هذا التناقض الشديد في المزاج والتفكير بين هاتين الشخصيتين أن ينشب بينهما الخلاف ويحتدم الصراع . وكان أول مظهر صريح لصراعهما هو تنافسهما على كسب مؤتمر الاممية الأولى . فقد تحققت في هذا المؤتمر مخاوف ماركس من باكونين ، إذ استطاع باكونين بكل سهولة أن يدحر مندوب ماركس ويتولى زعامة المؤتمر وفرض آرائه عليه . وكان من رأيه أن المجتمع الحر يجب أن يبني من أسفل إلى أعلى أي من وحدات صغيرة تتجمع في مجموعات اتحادية على أساس تعاقد تضامني اجتماعي . وهذا يناقض آراء ماركس في شكل المجتمع الذي يريده والذي يسيطر عليه العمال بعد قضائهم على النظام الرأسمالي .

وقد خف ماركس إلى مكان الاممية الأولى ، واشتد التنافس بين الرجلين ، وإذ لم يستطع ماركس منازلة خصمه في ميادين الجدل والنقاش فقد لجأ إلى الكيد المستور وطرق الحيلة والدس التي اشتهر بها بنو قومه اليهود واستغل خلافا ماليا بينهما عن أرباح ماركس من حقوق ترجمة كتبه للروسية ، فشهّر عن هذا الطريق بخصمه حتى ابعده عن الاممية وخلا له الجو فيها .

والذي يهمنا في هذا المجال أن باكونين وتلميذه نيشايف هما اللذان بلورا سياسة الارهاب ، أو الدعاية بالرعب ـ كما تسمى أحياناً ـ واعتمداها طريقا للعمل ووسيلة لنشر الدعوة ، وهما اللذان اطلقا الصرخة الأولى في هذه الحركة فترددت أصداؤها في أوروبا وامريكا وتلقفتها آذان الشباب الثائر ونفوسهم فراحوا يطبقونها

عمـلاً . وما عتمت هـذه الصرخـة أن غدت اعصـاراً داوياً يهـدر في ارجاء أوروبا كلها ويحمل في اثنائه الـرعب والهلع إلى قلوب الناس ، والموت والدمار إلى الرؤسـاء وأصحاب التيجان فيها .

وقد اشتدت أعمال الارهابيين الفوضـويين في أوروبـا منذ عـام ١٨٧٨ (بعد وفاة باكونـين) فشهدت بـرلين في ذلـك العام محـاولتين لاغتيال الامبراطور غليوم قام بهما كل من هيودل وفـوبلنك ، كما قام في مدريد المدعو مونكاسي بمحاولة لاغتيال ملك اسبانيـا ، وتبعه بعـد شهرين زميل له يدعى كونزاليـزا ، ولكنه فشـل أيضاً كسـابقه . وفي نابولي حاول المدعو جيوفاني باسامانتو اغتيال ملك ايـطاليا فلم ينجـح أيضـاً ، في حين نجـح أحـد الارهـابيـين في فـرنسـة بـاغتيـال رئيس الجمهورية الفرنسية .

أما في روسيا بالذات ، فقد كان نشاط الارهابيين أوسع وأعنف وأبعـد مدى ، وكـان أيضاً أكـثر نجـاحـاً وأمضى أثـراً . فقـد قـررت اللجنة التنفيذية « لجماعة النارودينك الارهابية » القضاء على القيصر وعلى أكبر عدد ممكن من بطانته مهما كان الثمن . وكان أول عمل لهم في هذا السبيل قيام فيرا زاسـوليج عـام ١٨٧٨ باغتيـال مديـر شرطـة القيصر في ظروف مثيرة جداً . وقد كان لهذا الحادث صدى مرعب في أوروبا كلها ، وكانت فيرا هذه (١٨٥١ ـ ١٩١٩) ارهابية عنيفة وقد ذاع بعـد هذا الحـادث صيتها وانتشر اسمهـا . وقد شـاع أنها كـانت وراء حوادث الاغتيال في ألمانيا وايطاليا واسبـانيا فـأصبح اسمهـا لهذا مثار القلق والذعر في قلوب ملوك أوروبا كافة .

وممـا يذكـر عن فيرا هـذه انها اتصلت بصداقـة متينة مـع كـارل مـاركس وقامت بتـرجمة كتـابـه رأس المـال إلى الـروسيـة ونشـرتـه في روسيا . وقد كتب لها ماركس مقـدمة خـاصة كـانت من اخريـات ما كتب . وقـد قُدِّر لفيـرا هذه أن تشهـد قيام الشيـوعية في روسيـا وأن تكـــون من أولى ضحـايـــا لينـين عنـــد تـطهـــير الحزب من « رفاق الثورة . . . ؟ » .

وبعد هذا جرت ست محاولات لاغتيال القيصر الكسـندر الثاني ، قام بأولاها معلم فاشل (١٨٧٩) يدعى الكسندر سولـوفييف فقبض عليه واعدم ثم نسفت بعد ذلك غرفة الـطعام في القصر الملكي فنجـا القيصر بمحض الصدفة وقتـل كثير من حـاشيته . ثم جـرت محاولات أخرى لاغتياله بالقاء القنابل عليه قـام بآخـرها عـامل يـدعى اكنانتي كـوينفنسكي إذ قضت قنبلته عليـه وعلى القيصر معـا وذلـك في شهـر مارت من عام ١٨٨١ وفي اليوم نفسه الذي افتتـح به القيصر البـرلمان الروسي الجديد (الدوما) .

***

والقارىء لهذه المسرحية سيلمح ولا شك اشارات كثيرة إلى هـذه الحوادث ، ففي المسرحيـة اشارات إلى حـوادث الاغتيال الفـاشلة في برلين ونابولي ومدريد ، ولعل المؤلف كان ينـظر إلى المعلم سولـوفييف حـين خلق في المسرحيـة شخصيـة البـروفسـور مـارفـا . وقـد اثـرت شخصية فيرا عـلى المؤلف كثيراً حتى استعـار اسمها عنـوانا لمسـرحيته وعلماً لها . ومن هذا كله ترانا عـلى حق حين قلنـا من قبل أن المؤلف

كـان يقصد إلى الفـوضويـين في روايتـه وليس إلى النهلست إذ لم يكن للنهلس شأن يذكـر في هذه الحـوادث ، وإنما كـانت جميعها من تـدبير الفوضويين وعملهم .

***

واستكمالا للحديث عن الفـوضويـة نقول : ـ ظلت الفـوضويـة الارهابية ـ بعد وفاة باكونـين ـ فكرة سـائدة لهـا اتباعهـا والمتفانـون في سبيلها إلا أنها لم تجد بعد باكونين زعيما له مثل قوته وشخصيته ليغذي بـروحه وأفكـاره شعلتها المتـوقدة . أمـا المذهب الفـوضوي ـ بصـورة عامة ـ فقد وجد في الامير كروبتكين (١٨٤٢ ـ ١٩٢١) زعيماً ومفكراً جديداً .

وكان كروبتكين رجلاً حر التفكير واسع الثقافة ملماً بأكثر اللغات الأوروبيـة ، وكان إلى جـانب هذا ممن ضحـوا بكل شيء في مقـارعـة ظلم القيصرية وجبروتها ، فلقى من ذلك الكثير من العنت والارهـاق وحفلت حيـاته بـالآلام المريـرة والتجارب المضنيـة . فقد ذهـب بخـير شطريها السجن واستبد بالشطر الثاني النفي والعـوز . ولكنه مـع هذا كله كان متين الشخصية ركينها لم تـزلزلـه الاحداث ولم تغـير شيئاً من روحه السمحة ونفسه المرحة وقلبه الكبير ولم تقلل أبداً من ايمانه بحق امته الروسيـا بالسعـادة والحريـة والحياة . وكـان من الطبقـة التي تؤثر بمثابة الشخصية وبروزها أكثر مما تؤثر بآثارها العقلية .

وبسبب ما عاناه هو وامثاله من غبـاء السلطة وضلالهـا وعمايتهـا فقـد زهد في أسـاليبها العنيفـة ودعا إلى المسـالمة والتعـاطف ، « فمن

مناي » ـ كما كان يقول ـ « يبلغ من الحكمة والعصمة حق ارغام الغير على الاخذ بآرائه ؟ » . وعلى هذا حاول كروبتكين أن ينقي الفوضوية من موجة الارهاب التي اجتاحتها وأن يعود بها إلى جادة المسالمة والاقناع . والذي يقرأ البحث الذي كتبه كروبتكين عن الفوضوية في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة في عام ١٩١٠) يجده يحاول كثيراً أن ينفي عن صميم فكرة الفوضوية مظاهر العنف والاغتيال والاجرام ، ولكن من دون أن يشجب هذه الاعمال ، بل على العكس نجده يحاول تبريرها على أنها وسائل اضطر الفوضويون إلى اللجوء إليها دفاعاً عن انفسهم وعن كيانهم وكمقابلة بالمثل لتعسف الحكومات وارهابها ضدهم ، تلك الحكومات القائمة هي نفسها على مبادىء القسر والعنف والتنكيل . ويقول لو أن هذه الحكومات سمحت للفوضويين بالتعبير عن آرائهم والدعوة لمذاهبهم في الاصلاح أو لو أنها القت بالا إلى مطاليب الاصلاح المشروعة لما اضطر المتطرفون من الفوضويين إلى امتشاق السلاح في وجوه تلك الحكومات . ويضرب مثلاً على هذا انكلترة ، التي لم يقم الارهابيون فيها بحادث واحد بسبب افساح المجال لهم للتعبير عن آرائهم وعدم أخذ الحكومة لهم بالقسوة والاكراه .

ومهما يكن من أمر فإن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن كروبتكين كان فوضويا سلمياً أو ثائراً طوبائياً يحلم بجعل الارض فردوسا سعيدا . وقد قدر له أن يعود إلى وطنه روسيا بعد الثورة الشيوعية فيها عام ١٩١٧ فسرعان ما صدمته وهزته وقائع الثورة الشيوعية وفتحت عينيه على الحقائق الارضية فرأى الفردوس السعيد الذي

كان يحلم به قد تحقق على الأرض ولكنه كان فردوس الحروب والدماء والمجاعة والبؤس والتشريد ، وشرٌ من كل هذا طغيان جديد واستبداد أشد من استبداد القياصرة يخيم على البلاد . ولهذا لم يتوان كروبتكين ولم يسكت عن نقد الحكومة السوفيتية بأصرح العبارة . فاستنكر منها مركزة القوة السياسية والصناعية وانحى بأعنف الكلام وأمرّه على تدابير القمع التي لجأت إليها الحكومة السوفيتية على أنها وسائل ضرورية للدفاع عن الثورة « فكأننا ـ كما قال ـ : غيّرنا القياصرة ولم نغير القيصرية » . وتنبأ للحكم البلشفي القائم على استبداد حزب واحد بالفشل والاخفاق .

وقد حمل الحكام السوفيت على السكوت عنه شيخوخته البالغة وماضي جهاده وشخصيته ومقدار حب الروس واحترامهم وتقديرهم له ، حتى أن لينين ـ وهو خصمه في الرأي وعدوه في المذهب ـ لم يجد بدا من مجاملته واكرامه في أيامه الأخيرة ، فقد حدث أن همت السلطات السوفيتية أن تسلب كروبتكين بقرة كانت له تطبيقاً منها للمذهب الشيوعي الذي لا يسمح لأحد أن يمتلك شيئاً من الماشية ، فلما سمع لينين بالامر ، أمر بإعادة البقرة إلى كروبتكين وأن تبقى له لا يمسها أحد . . . وهذا ـ لعمر الحق ـ غاية الجود والاكرام . . ! لكن كروبتكين ، رغم حاجته إلى البقرة ونفعها له في أيامه الاخيرة ، فقد أبى عليه طبعه الحر المستقل القوي أن يميز عن سواه من جمهور الامة ورد البقرة إلى السلطات قائلاً انه لا يأخذ شيئاً لا سبيل لروسي عادي إليه.

ولقد قضت الحرب العالمية الأولى على الفوضوية فيما قضت عليه . فلم يشهد العالم بعدها أثراً للفوضوية كمذهب فكري

وسياسي مستقل . ومرد هذا في رأينا إلى سببين (الأول) هو التغيير الجذري الذي حدث بعد تلك الحرب في التركيب السياسي والاجتماعي للدول الغربية وقيام الحكومات القومية وشيوع النظم الديمقراطية الصحيحة فيها مما لم يدع مجالا لنمو الافكار الثورية الهدامة . و (الثاني) هو قيام الحكم الشيوعي في روسيا ومحاربة لينين للمذهب الفوضوي محاربة عنيفة لا هوادة فيها واعتباره اياه أو أي مذهب آخر غير الشيوعية مذاهب رجعية استعمارية ، ومن يعتنقها فهو من أعداء الشعب !!! .

على أن العالم وأن نجا من الفوضوية كمذهب وحركة ، فإن البشرية ما زالت تعاني في العصر الحديث الكثير من مظاهر العنف والارهاب وسياسات القمع والتعسف وبث الرعب والخوف في قلوب الناس تقوم بها الحكومات الدكتاتورية فاشية كانت أم شيوعية . وهي أعمال قسرية ارهابية تعسفية في حقيقتها وطبيعتها وفي وسائلها وغاياتها ولن يغير من واقع أمرها تنصل هذه الحكومات من الفوضوية أو شجبها لها بالنظريات والاقوال أو محاولاتها « فلسفة » هذا الطغيان الجديد بنظريات « الفحوى والمحتوى » أو غيرها من السفسطات الفارعة والبراقع المهلهلة . وقد خبرنا في العراق ألوانا من هذا الارهاب في فترة تسلط الشيوعيين على الرقاب . . . ولكن الله كان بنا لطيفا فأنقذنا من هذا المد البربري الرهيب .

على أننا وقد ألممنا بطرف من تيار الفكر الفوضوي يجب أن نميِّز ـ كما قلنا في أول هذه الكلمة ـ بين الفكرة الفوضوية الصرفة وبين سياسات الارهاب هذه التي لا تخرج عن كونها طغيانا دكتاتوريا

واستبداداً قيصرياً « رجعياً » لم تر البشرية مثله حتى في عصورها المظلمة السحيقة .

فالدكتاتوريات الفاشية كانت تلجأ إلى هذه السياسات لاسكات معارضيها أو التخلص منهم . وكانت « فلسفة » « من ليس منا فهو عدونا » تبرر لها التنكيل بمعارضيها أو قتلهم بالجملة والمفرد ، لأنهم أعداء الشعب ، والشعب في نظرهم هو الحزب الحاكم فقط فمن لم يكن منه كان عدواً يجب القضاء عليه .

والدكتاتوريات الشيوعية تنهج نفس هذا النهج وترى نفس هذا الرأي ، وتطبقه أيضاً ولكن بضراوة وقسوة فاقت كل ما يرويه التاريخ عن ظلم الطغاة . فالحزب الشيوعي في كل بلد يحتكر العمل السياسي لنفسه ويحرمه على الاحزاب الأخرى ، ومن يحاول معارضة الحزب أو الخروج على أوامره فهو رجعي متآمر ، ولأن الرجعيين أعداء الشعب يجب إبادتهم وبالتالي يجب إبادة كل من يخرج على ارادة الحزب أو رأيه . ولسنا نختلق هذا القول اختلاقا . فهذه ادبيات الحزب الشيوعي طافحة بما يؤيد رأينا هذا ، بل وهذا داعية من دعاتهم لا يتورع عن القول في جريدة عراقية : «ان الحرية والديمقراطية لا تتعارضان مع القمع والتضييق على الحرية والديمقراطية . أن الجانبين مرتبطان في كل مجتمع مع فوارق جوهرية » وهذه الفوارق الجوهرية لا تخرج طبعاً عن خرافة الفحوى والمحتوى . . .

فالحرية للشعب مضمونة لا شك فيها ، كما يقولون . أما التضييق فهو من نصيب أعداء الشعب . ولكن من هم أعداء

الشعب ؟ هم كل من يخالف رأي الفوهرر في المانيا ، والدوتشي في ايطاليا والفوشدة Vozhda في روسيا . لكن السؤال الخطير هو « من اتى بهؤلاء الافراد إلى الحكم ؟ وكيف ؟ » انهم لم يتولوا الحكم بارادة الامة أو رأي الشعب . وإنما فرضوا انفسهم عليه بالقوة. ولينين نفسه مثلا هرَّبه الجيش الالماني إلى روسيا بقطار خاص ليقوم بالثورة فيها مقابل وعده لهم بسحب الجيش الروسي من جبهات القتال ليتفرغ الالمان إلى الحرب في الجبهة الغربية فقط . ولكن رغم هذا فإن لينين نفسه لم يقم بالثورة وإنما سلبها من حكومة كرنسكي التي وصفها أول أيامها بأنها أكثر حكومات أوروبا حرية وديمقراطية . فأين ارادة الشعب في هذا ؟ وكيف يبيح فرد واحد لنفسه جاء إلى الحكم بالقوة أن يفرض آراءه على مئات الملايين من المواطنين وبالقوة أيضاً ؟ . وكيف تبلغ الحكمة والعصمة عند بشر - كما يقول كروبتكين - حداً يبيح له ارغام الناس على الاخذ برأيه بل وابادة وافناء كل من يخالفونه بالرأي والعقيدة ولو كانوا ثلاثة أرباع مجموع السكان كما كان يقول لنين . وكما يكرر هذا دوما اتباعه في الصين وفي العراق .

ان الحاكم لن يلجأ إلى فرض ارادته بالقوة والارغام على شعبه إلا إذا تملكته رغبة الاستئثار بالحكم والتفرد بالسلطان والاستمرار فيه ، مع احساسه بفشل نظامه وبعدم رضاء الشعب عنه ومع شعوره بضعفه وعجزه عن اقناع شعبه بالجدل والنقاش ، فليس له إلا اللجوء إلى الحديد والنار .

وفي رأينا أن رغبة الحاكمين بأمرهم بالبقاء بالسلطة رغم ارادة شعوبهم ، ولجوءهم إلى الحديد والنار في تثبيت سلطانهم مصدره زيغ

في نفوسهم وانحراف في طباعهم ومسخ في اخلاقهم ونقص في تكوينهم وانفصام في شخصيتهم ينحط بهم من مستوى الانسانية الرفيعة إلى حضيض الحيوانية التي لا تتورع عن نهش لحوم الانسان والولوغ في دمه . واستعراض التاريخ في سيره الطويل عبر الاجيال والقرون شاهد واضح على ما نقول .

وفي رأينا أيضاً أن البشرية ستظل مبتلاة معناة بهذه الاوصاب تقاسي عقابيل ادواء الدكتاتورية والتحكم ما بقيت شعوبها بعيدة عن روح الديمقراطية الصحيحة القائمة على الحرية الحقة والمساواة التامة .

والحرية هي حرية الرأي والعقيدة والكلام . فلكل شخص أن يعتقد ما يشاء ، وأن يقول ما يعتقد ، وأن يدعو جهرة وعلانية إلى رأيه وعقيدته وإن خالفت رأي الآخرين ، لا أن تحتكر الوطنية فئة واحدة ، وتستأثر بالعقيدة جهة واحدة ويكون معارضوها اعداةً للشعب تحجب عنهم الحرية ويحق عليهم الموت والقتل والفناء دون رادع ولا قانون .

أما الديمقراطية فاول مقوماتها واهمها اتاحة الحرية للشعب لأن ينتخب حكومته وأن يشارك في ادارتها ، وأن يظل يراقبها وينقدها ويحاسبها ، بل وله أن ينحيها ويأتي بغيرها حين يقتضي صالح الشعب ذلك .

هذه الديمقراطية ، هي الديمقراطية الصحيحة ، التي عناها الزعيم الامريكي الشهير ابراهام لنكولن حين وصفها بأنها « حكومة الشعب ، بواسطة الشعب ، ومن أجل الشعب » . وهي وحدها

الدرع الواقي لكل امة من كل تحكم وكل استبداد ، ومن كل طاغية ومن كل دكتاتور ومن كل مذهب وافد دخيل أو مبدأ ارهابي هدام ، وهذه هي الديمقراطية التي نؤمن بها وندعو إليها . . . أما ما عداها من ديمقراطية هتلر وستالين فهي ادعاءات فارغة وتسميات كذابة واباطيل ملفقة وأسمال بالية يحاولون عبثا أن يستروا بها قيصريتهم الباغية ودكتاتوريتهم البغيضة ، وهي لن تنطلي إلا على الضالين أو المضللين والمفتونين أو الخادعين ولا بد من يوم ينجلي فيه الحق لهؤلاء فيعودوا إلى صوابهم راشدين .

أما الشيوعية في روسيا فلها قصة طويلة ليس هذا محلها ، ويكفي أن نقول عنها الآن انها شيوعية محرفة حتى عن شيوعية ماركس نفسه ، وإذا علمنا فوق هذا أن ماركس نفسه حين رأى كثرة ما نُحل إلى مذهبه مما لم يكن يعنيه ، وحين رأى شطط اتباعه في تفسير مذهبه على اهوائهم وتوسيعه واضافة ما ليس به إليه ، صرح لرفاقه قائلاً « لقد اوشك ماركس أن يكون غير ماركسي » . إذا علمنا هذا وذاك استطعنا أن نقدر بعد النظام السياسي السائد في بعض بقاع الارض عن حقيقة النظرية الشيوعية وليس ادل على هذا من اختلاف الشيوعية في يوغوسلافيا وفي روسيا وفي الصين عن بعضها البعض اختلافات جوهرية كبرى .

وما كان لهذا النظام أن ينجح في بلد غير روسيا ، فالروس مطبوعون على الانقياد والطاعة للحكام لم يذوقوا طعم الحرية في تاريخهم الطويل أبدا ، منذ أن فتح هولاكو بلادهم قبل عشرة قرون

تقـريباً حتى الآن . ومـا النظام البـوليسي الرهيب السـائـد في روسيـا الآن ، إلا امتـداداً للنظام البـوليسي القيصري الـذي ورثه القيـاصرة بـدورهم من الفـاتحـين الأوائـل . . . هـولاكـو واحفـاده . ومـا كـان لحكامهم أن يلجأوا معهم إلى طريق العنف والقسر أو ما كان الشعب ليصبـر على هـذا الاسلوب في الحكم لولا مـران طويـل عليه بـدأ من عهد المغول وايفان الرهيب حتى يومنا هذا .

والشيوعية بعد ، كنظرية علمية ، لم تعـد ـ كما قـال الرئيس نهرو حكيم الهند ـ صالحة لزماننا هـذا . بل أنها تحمـل بين طيـاتها عـوامل فنائها . فهي نظرية وجدت لتعالج أحوال أوروبـا ـ وليس روسيا ـ في منتصف القرن الماضي ، وكان لها آنذاك ما يبررها ، إلا أن جـرثومـة الفناء في النظرية الشيوعية هو جمودها واقتصار نظرتها على المجتمعـات الصناعية الأوروبية في القرن المـاضي ، وقصورهـا عن أن تجد حلولا صائبة للمجتمعـات الجديـدة الناميـة في آسيا وافـريقيا في هـذه الايام والتي تختلف بتـركيبهـا الاجتمـاعي والسيـاسي والاقتصـادي عن المجتمعات الأوروبية السابقة والحالية .

والنظام الشيوعي ـ كما قلنا ـ قد فرض عـلى الروسيـا فرضـا بقوة السـلاح ووجد في طبيعـة الروس وتعـودهم عـلى الخضـوع والـطاعـة لاسيـادهم أرضاً خصبـة ساعـدت على بقـائـه حيـا دون أن تَعْمُق في التـربة جـذوره أو تُغرسَ في النفـوس محبتـه . ولهـذا مـا أن خـرجت الشيـوعية من روسيـا حتى تصـدع بنيـانها وذهبت مـذاهب شتى يمينـا وشمالا . فالعالم يشهد اليوم ثلاثة تيارات شيوعيـة ، كل منهـا يدَّعي

الاصالة وصدق التمثيل للمذهب الماركسي الصحيح وكل منها يرمي شقيقه بالانحراف والخروج عن الماركسية الاصيلة . وهذه الشيوعيات هي الشيوعية اليوغوسلافية في اليمين ، وشيوعية روسيا في هذه الايام في الوسط ، وشيوعية الصين في أقصى اليسار . وليس ادل من هذا ، كما قلنا ، عن بعد هذه التطبيقات الشيوعية عن حقيقة النظرية ذاتها ، وعن بعد حقيقة النظرية ذاتها عما يدعيه لها اتباعها من الوحدة والثبات والشمول والقدرة السحرية على الخلود السرمدي في كل مكان وزمان !! .

ومما يبشر بالخير ويدعو إلى الامل أن غشاوات الضلال بدأت تنقشع عن العيون ، واباطيل المضللين تتهتك أمام النور المبين وحقائق الامور تنكشف لجماهير الشعوب ، فكان أن قضت أمم الارض على دكتاتوريات الفاشست بعد حرب ضروس كلفت البشرية الملايين من ابنائها ، وهي الآن قد تنبهت إلى الدكتاتورية الشيوعية وما تبيته لها من ذل واستعباد ، وما في محتواها من بغي وضلال ، وما في فحواها من فراغ ، إلا من القتل والقسوة وسفك الدماء ، فبدأت شعوب الارض هذا اليوم تقف في وجه تيارها وتمنع انتشارها وتستبدل بها مبادىء ونظريات تجبلها من تربة أوطانها ، وتستوحيها من خبرتها ونضالها وتاريخها ومن صميم مشاكلها وتستهدف بها حريتها الحقة وسعادتها المضمونة . ولهذا فقد أخذنا نشهد هذه الايام بداية انحسار المد الشيوعي في كثير من الأقطار الاسيوية والأفريقية وهي بداية طيّبة لا بد لها أن تبلغ حد الكمال بعد وقت قصير أو طويل ، ولا بد لكل ما يخالف طبائع الاشياء من زوال .

وبعد فقد جرنا الحديث عن اوسكار وايلد إلى أشواط بعيدة في الكلام ، ولكنها لا تخرج عن مقتضيات المقام . فليس أطيب من الحديث عن اوسكار وايلد مناسبة للكشف عن زيف الآراء وشطط الافكار ولمحاولة تقويم الموازين وتمحيص الحقائق وتمييز الباطل منها عن الصحيح . فقد كان اوسكار وايلد في حياته كلها محبا للحرية والصدق في التعبير وفي الافعال . وقد كان كلفا في تصحيح المقاييس وتقويم القيم واشاعة المفاهيم الصحيحة ، مغرما بالكشف عن باطل الآراء والمعتقدات . جاهداً في فضح الزيف والخطل وفي تمزيق اقنعة الملق والرياء والكذب والنفاق عن الوجوه والعقول راكبا أصحابها بسخريته الرائعة لاهبا ظهورهم بأسواط دعابته الشائقة مظهراً للناس زيفهم وزيف دعواهم ليضحكوا منهم ويتعرفوا عليهم ويتقوا شرهم . فلعلنا بعد هذا لم نستغل ذكرى وايلد بما لا يرضيه ، ولم نخرج في المقال عن طبعه وسجاياه ولا عن مقتضيات الحال . وشكراً لاوسكار وايلد ان اتاح لنا هذه المناسبة . . . والسلام .

عبد المجيد حسيب القيسي

أوسكار وايلد

الفوضويّون

مسرحية تقع في مقدمة وأربعة فصول

أشخاص المسرحية

أشخاص المقدمة : ـ

بيتر سابوروف　　صاحب فندق

فيرا سابوروف　　ابنة صاحب الفندق

ديمتري سابوروف　　ابن صاحب الفندق

مايكل ستروكانوف　　فلاح

الكولونيل كوتيمكن

جنود . مساجين

أشخاص الرواية : ـ

القيصر ايفان

الامير بول مارالوفسكي

الامير بيتروفتش

الكونت رومانوف

المركيز دي بوافرارد

البارون راف

الكونت بيتوشوف

الجنرال كوتيمكين

وصيف ، آمر الحرس ، مرافقون ، جنود .

الفوضويون : ـ

بيتر جيرنافتش الرئيس

مايكل ستروكانوف

الكسيس ايفانوفتش ويعرف بأنه طالب في كلية الطب

البروفسور مارفا

فيرا سابوروف

عدد من المتآمرين

توطئة

المنظر : ـ فندق ريفي في احدى القرى الروسية . يظهر في صدر المسرح باب كبير يطل على ارض كاسية بالجليد .

بيتر سابوروف ومايكل ستروكانوف

بيتر : (وهو يدفىء يديه على الموقد) ألم تعد فيرا من السوق بعد يا مايكل ؟

مايكل : كلا ، يا عم ، انها لم تعد بعد ، فإن ثلاثة الأميال التي تفصل بيننا وبين دائرة البريد مسافة لا يستهان بها بالاضافة إلى أن عليها حلب البقرات ، وخاصة البقرة الصفراء الخبيثة ، فهي حيوان شرس صعب قيادها على فتاة مثل فيرا .

بيتر : ولِمَ لَمْ تذهب معها ايها الشاب السخيف ؟ فهي لن تحبك الحب كله ما لم تتبع اثرها دائماً ، فالنساء يا ولدي لا يحببن إلاّ من يهتم فيهن ويدللهن دائماً .

مايكل : على العكس يا عماه ، انها تقول بأني اهتم بها وادللها أكثر مما ينبغي ، ولذا فأخشى أن افقد حبها إلى الابد .

بيتر : صه . . صه . . يا ولد . فلا زلت يافعا ولن تكون مكروها حتى لو وهبتك أمك أو الباري تعالى وجها غير وجهك هذا . وكيف يكون هذا ؟ ألست من حراس غابات الامير مارالوفسكي ؟ ألست تملك مرعى طيبا وعندك أحسن بقرة في القرية ؟ ليت شعري ما الذي تبتغيه فتاة أكثر من هذا ؟ .

مايكل : لكن فيرا ، يا عم . . .

بيتر : نعم ، يا ولدي ، فيرا لها آراء وأفكار كثيرة وغريبة . ولا ادري ما نفع هذه الآراء لها . فأنا شخصيا لا اغير اهتماماً لمثل هذه السفاسف . ولقد سرت في الحياة ونجحت فيها دون أن احتاج إليها . ولكن أولادي لا ينهجون نهجي . ولا ادري لماذا ! فهذا ديمتري مثلا ، لمَ لمْ يمكث معنا ويتولى ادارة هذا الفندق وهو عمل يتهافت على مثله الشبان في هذه الايام . ولكنه بذهنه الضيق وتفكيره السقيم ابى إلا الذهاب إلى موسكو لدراسة القانون هناك . . . وماذا يريد أن يتعلم من القانون . . . والرجل إذا ما اخلص في اداء عمله ابتعدت عنه المشكلات ولم يعد يحتاج للقانون والقانونيين .

مايكل : نعم يا عم - ولكنهم يقولون أن رجل القانون الضليع هو من يستطيع أن يخالف القانون دوما وكما

يشـــاء وحينـما يـــريــد دون أن يقـــع تحت طــائلة القانون . . . وفي الحقيقة أن من يتقن القانون يتعلم كيف يؤدي واجبه باخلاص . .

بيتر : هذا صحيح فإن من يتفقه بالقانون لا يجد بعد ذلك محرما إلا ويستطيع تحليله ، ولا ممنوعاً إلّا ويستـطيع إتيـانه بحسن نيـة إذا مـا شـاء ذلـك . . وهـذا سر تهـافت شبـاب اليـوم عـلى أن يكـونـوا من رجـال القانون ، لأن هذه هي كل براعة القـانوني وهي في الوقت نفسه كل ميزتـه . . وانظرهـا هو ذا ديمتـري يقيم هناك منذ أربعة أشهر دون أن يكتب لنـا سطراً واحداً فيا له من ولد عاق . . ! .

مايكل : مهلا يا عم ، لا بـد أن رسائـل ديمتري قـد ضاعت في البريد ولعل مأمـور البريـد لا يحسن القراءة فهـو يبدو كثير الغباء . . ولكن ديمتري . . لا . . أنه كان احسن فتيان هذه القـرية . اتـذكر يـا عم بيتر كيف صـرع الخنـزيـر الكبـير بـرمية واحـدة في الشتـاء الماضي . . ؟ .

بيتر : نعم لقـد كانت رميـة بارعـة حقا . وأنـا لم اوفق في حياتي كلها إلى رمية مثلها .

مايكل : وفي الرقص اتذكر يوم انهك العازفين الثلاثة الـذين مروا بنا قبل عامين دون أن يصيبه الكلل أو الملل .

بيتر : نعم . لقد كان فتى مرحا دائماً . بينما كانت اخته عابسة متجهمة . وكم من أيام قضتها وحيدة منعزلة عن الناس كأنها راهبة تعيش في صومعة .

مايكل : أن فيرا ، يا عم ، دائمة التفكير في الآخرين .

بيتر : نعم وهذه غلطتها يا ولدي . فلماذا يفكر المرء بشؤون الآخرين . دع الله تعالى وابانا القيصر يرعيان هذا العالم ويهتمان به . أما أنا فليس من شأني أن ارفع سقيفة جاري إذا ما انهدمت عليه . ولماذا ؟ خذ مثلا مايكل العجوز ، ففي الشتاء الماضي هبت عليه عاصفة ثلجية وهو يسوق زلاقته عائداً بعد الغروب إلى داره فتجمدت أطرافه من البرد حتى مات ودفنته العاصفة تحت أكوام الجليد هو وزلاقته . وبوفاته فقدت عائلته معيلها الوحيد فأوشك أطفاله وزوجه على الموت جوعاً وفاقة من بعده . وما شأني أنا في هذا الموضوع ؟ . فأنا لم اخلق العالم ، فليرعه خالقه الكريم وابونا القيصر . . . وقبل هذا الحادث بأعوام ، هلك الحرث والنسل كما يقولون . . . فقد وفدت على الزرع آفة مهلكة ابادته وأتت على آخره وصحبها طاعون أسود فتاك رهيب انقضّ علينا وأهلك الناس فتساقطوا صرعى بكثرة وبسرعة هائلتين حتى

لم يعـد متسع من الـوقت ليدفن النـاس والـرهبـان المــوتى ، فكـانت الجثث تلقى خـــارج الـدور حتى غصت بها الشوارع والطرقات وظلت اياما وأسـابيع مـطروحة بـالعراء مكـدسة الـواحدة فـوق الأخـرى رجـالا ونساء كبـاراً وصغـاراً عـلى حـد سـواء . . . ولكن ما شأني أنا بهذا الموضوع ؟ فأنا لم اخلق العالم فليـرعه خـالقه الكـريم وابـونـا القيصر . . . وقبـل عامين فاض النهر فجأة وطغى على مدرسة الاطفـال حتى جـرف التيار كـل طفل وطفلة فيهـا ولم يعـرف مصيـرهم فما عـلاقتي بالمـوضوع فـأنا لم اخلق هـذه الدنيا فليهتم بها خالقها تعالى وابونا القيصر . . .

مايكل : ولكن يا عم بيتر . . .

بيتر : لا . . لا . . يا ولدي فلن يستـطيع امـرؤ أن يعيش في هذه الدنيا إذا ما حمل على كتفيـه هموم الآخـرين واعبـاءهم اضافـة لمتاعبـه . (تدخـل فيـرا بمـلابس القرويات) . اهلاً فيرا . . لقد امضيت وقتاً طويلاً في الخارج . . . اين الرسالة ؟ .

فيرا : لا توجد رسالة اليوم .

بيتر : اعلم ذلك ! .

فيرا : ولكن قد تصل إلينا رسالة غدا يا ابتاه .

بيتر : لعنه الله من ولد عاق .

فيرا : أبتِ . لا تقل هذا . لا بد أنه مريض .

بيتر : نعم ! مريض بالبذخ والفجور . .

فيرا : كيف تقول هذا وأنت تعلم أنه غير صحيح .

بيتر : اين اذن تذهب أمواله ؟ اسمع يا مايكل . لقد اعطيت ديمتري نصف ثروة أمه ليأخذها معه وليدفع منها إلى رجال القانون هناك أجور الدراسة . وطيلة هذه المدة لم يكتب لنا إلا ثلاث مرات وفي كل مرة منها يطلب المزيد من المال . وها هي قد مرت خمسة أشهر أو ستة ولم نسمع عنه خبرا .

فيرا : ابتِ أنه سيعود حتما .

بيتر : أي نعم فالمبذرون يعودون إلى اهليهم دائماً . ولكني لن ادعه يدنس أرض هذه الدار ثانية .

فيرا : (تجلس مفكرة) لا بد أن مكروها قد اصابه . اخشى أن يكون قد قضى نحبه . اواه يا مايكل فإني جد قلقة على ديمتري . .

مايكل : هلا تحبين أحدا غيره يا فيرا ؟ .

فيرا : (بابتسام) لا ادري . . . في العالم أمور أخرى كثيرة تستحق الاهتمام . . غير الحب .

مايك : لا . ما من شيء يوازيه شأنا يا فيرا . . .

بيتر : ما هذه الضجة في الخارج يا فيرا . . (تسمع صلصلة سلاسل الحديد) .

فيرا : (تنهض متجهة إلى الباب) لا ادري يا أبتِ . انها لا تشبه اصوات اجراس الماشية وإلا لاعتقدت أن نيكولاس قد عاد بماشيته من السوق . . . ابي . . . انهم بعض الجنود ينحدرون إلينا من التل ، وامامهم قائدهم فارسا . . . ربـاه ما أجمل منظرهم . . . لكن يظهر معهم أيضاً رجال مكبلون بالحديد لا بد أنهم بعض اللصوص . . . أبتِ لا تدع هؤلاء اللصوص يدخلون علينا فإني أكره النظر إلى وجوههم .

بيتر : رجال مكبلون بالحديد . . . اننا اذن سعداء يا فيرا . فلقد سمعت منذ أيام أن طريقنا هذا سيكون الطريق الجديد إلى « سيبيريا » حيث يرسل السجناء للعمل بالمناجم هناك . ولكني لم اصدق الخبر في حينه . ولكن ها هوذا قد تحقق . . . اننا سنجمع ثروة طيبة من هذا . . . سنصبح أغنياء . . . اهنئي يا فيرا وقري عيناً فسأكون ثريا وسأموت ثريا . . . فمن الآن وصاعداً سيكثر لدينا النزلاء المحترمون . على الرجل الشريف أن ينتهز الفرصة ليبتز رزقه من الاوغاد بين الفينة والأخرى .

فيرا : وهل هؤلاء من الاوغاد ؟ وما جريمتهم ؟ .

بيتر : اعتقد انهم من الفوضويين الذين يحذرنا المطران منهم دوما . لا تقفي جامدة يا فيرا .

فيرا : اذن فهم أشرار على ما اعتقد .

(تسمع أصوات الجنود ونداء « قف ! » ثم يدخل ضابط روسي برتبة كولونيل مع بعض الجنود ومعهم ثمانية رجال مكبلون بسلاسل الحديد وعليهم ملابس رثة . يرفع احدهم حافة معطفه عند دخولهم الغرفة فيخفي بها وجهه حتى اذنيه . بعض الجنود يتولون حراسة الباب ويجلس الآخرون ويبقى السجناء واقفين) .

الكولونيل : صاحب الفندق !

بيتر : نعم يا سيدي الكولونيل .

الكولونيل : (مشيرا إلى السجناء) اعط هؤلاء قليلا من الخبز والماء .

بيتر : (لنفسه) هذا طلب لا اربح منه شيئا !!

الكولونيل : وبالنسبة لي . ما الذي عندك من طعام ؟

بيتر : عندي قطعة ممتازة من لحم الغزال المجفف ، يا صاحب السعادة ، مع بعض الويسكي المعتق .

الكولونيل : الا يوجد شيء آخر غير هذا ؟

بيتر : طبعا يا صاحب السعادة . . . المزيد من الويسكي .

الكولونيل : ما اقذر هؤلاء الفلاحين !. هل لديك غرفة أخرى احسن من هذه ؟

بيتر : نعم يا سيدي .

الكولونيل : خذني إليها . وأنت أيها العريف وزع الحرس خارج الفندق وامنع هؤلاء السفلة من الكلام مع احد . وانتم أيها الاجلاف الكلاب ، كتابة الرسائل ممنوعة بتاتا ومن يخالف يجلد على قارعة الطريق . وأنت (يخاطب بيتر الذي ينحني أمامه) إلي بطعامك وابتعد عن طريقي أيها الاحمق ! (يرى فيرا) ومن هذه البنت ؟ .

بيتر : انها ابنتي يا صاحب السمو .

الكولونيل : وهل تعرف القراءة والكتابة ؟ .

بيتر : نعم يا سيدي انها تعرف ذلك .

الكولونيل : انها اذن امرأة خطرة . يجب أن لا يسمح لهؤلاء الفلاحين بشيء من هذا القبيل . . . احرثوا ارضكم واخزنوا حبوبكم وادفعوا ضرائبكم واطيعوا سادتكم هذا هو كل ما يجب عليكم أن تفعلوه .

فيرا : ومن هم سادتنا ؟ .

الكولونيل : ايتها البنت الصغيرة . أن هؤلاء الرجال مسوقون إلى المناجم ليقضوا فيها بقية حياتهم بسبب سؤالهم مثل هذا السؤال السخيف .

فيرا : اذن فهم محكومون ظلما وبدون حق .

بيتر : فيرا كفي لسانك . انها ، يا سيدي ، فتاة حمقاء تثرثر اكثر مما يجب .

الكولونيل : والآن اين الطعام ؟ اسرع فإني بالانتظار . . . لا خير في فتاة خشنة اليدين . (يدخل ومعه بيتر ومرافقه إلى غرفة داخلية) .

فيرا : (إلى احد الفوضويين) هل لك بالجلوس . انك متعب الآن ولا شك .

العريف : انتبهي يا فتاة . الكلام ممنوع مع السجناء .

فيرا : سأتكلم معهم . كم من المال تريد مقابل ذلك ؟ .

العريف : كم لديك منه ؟ .

فيرا : هل تتركهم يجلسون إذا ما اعطيتك هذه (تنزع من عنقها قلادة ريفية) انها كل ما املك وقد كانت لأمي من قبل .

العريف : حسنا . يبدو انها لا بأس بها ، وثقيلة أيضاً . مالذي تريدينه من هؤلاء الرجال .

فيرا : انهم جياع وتعساء . دعني اذهب إليهم .

احد الجنود : دع هذه الفاعلة وما تريد إذا ما ادتنا الثمن .

العريف : حسنا اذهبي إليهم . ولكن إذا ما ابصر بك الكولونيل بينهم فإنه سيأخذك معهم حتما ، يا حسنائي الصغيرة ! .

فيرا : (تتقدم نحو الفوضويين) اجلسوا . انكم الآن جد متعبين طبعا (تقدم لهم طعاما) من انتم ؟ .

احد السجناء : فوضويون .

احد السجناء : فوضويون .

فيرا : ومن امر بتقييدكم بالحديد ؟ .

السجين : ابونا القيصر .

فيرا : ولماذا ؟ .

السجين : لأننا نعشق الحرية .

فيرا : (للسجين الذي يخفي وجهه) وانت ماذا اردت أن تفعل ؟ .

السجين : منح الحرية لثلاثين مليون نسمة مستعبدين لشخص واحد .

فيرا : (بدهشة فقد كان الصوت مألوفا لديها) ما اسمك ؟ .

السجين : لا اسم لي .

فيرا : واين اهلك ؟ .

السجين : لا اهل لي .

فيرا : دعني أرى وجهك .

السجين : انك لن تجدي فيه غير آثار العذاب والتشويه .

فيرا : (تسحب المعطف عن وجهه) يا آلهي . . . انه ديمتري أخي !!

ديمتري : اسكتي . . . اسكتي يا فيرا وهدِّئي من روعك . أرجو أن لا تدعي أبي يعلم شيئاً عن هذا ، فإن ذلك سيقضي عليه حتما . لقد اعتقدت أني استطيع تحرير روسيا . ففي ليلة ما سمعت بإحدى الحانات اناسا يتكلمون عن الحرية ، ولما كنت لم أسمع بهذه اللفظة من قبل ، فقد خيل إلي آنذاك وكأنهم يتكلمون عن اله جديد . فاندمجت معهم وصرفت كل مالي ، ومنذ خمسة أشهر ألقيَ القبض علينا عندما كنت أطبع احدى النشرات . وها أنا ذا مسوق للعمل في المناجم في سيبيريا طول الحياة . لم استطع أن أكتب اليكم . الحقيقة أنني كنت أفضل أن تظنوني ميتا . والواقع انهم ماضون بنا إلى مقبرة الاحياء .

فيرا : (تنظر حواليها) يجب أن تهرب يا ديمتري وأحل انا محلك .

ديمتري : مستحيل ! كل ما تستطيعين عمله لي هو أن تثأري لي .

فيرا : سأنتقم لك حتما .

ديمتري : اسمعي اذن : في موسكو ، يوجد دار . . .

العريف : ايها السجناء انتبهوا !! الكولونيل قادم . وأنت ايتها الفتاة كفاك كلاما فقد انتهى الوقت .

(يدخل الكولونيل ومرافقه وبيتر)

بيتر : أرجو أن قد طاب لسعادتكم اللحم ، فقد اصطدت الغزال بنفسي .

الكولونيل : كان يمكن أن يكون أجود لو اقتصدت في الكلام عنه .

ايها العريف . تهيأ للحركة . (يعطي كيسا من النقود إلى بيتر) خذ هذا ايها الثعلب اللئيم .

بيتر : لقد تحققت لي الثروة . ادام الله سعادتكم . اتوقع أن سعادتكم سيسلك هذا الطريق دوما بعد الآن .

الكولونيل : هذا ما لا ارجوه ، وحق القديس نيكولاس أن هذا المكان جد بارد بالنسبة إلي . (يلتفت إلى فيرا) وانت ايتها الفتاة لا تسألي بعد الآن عن أشياء لا تغنيك . انني لن انسى وجهك .

فيرا : ولا أنا . فلن انسى وجهك ولا ما تفعل بهؤلاء .

الكولونيل : لقد تعلمتم وقاحة اللسان ايها الفلاحون الاجلاف منذ أن رفع عنكم الرق . ولكن دواءكم السوط فهو خير مدرسة لكم تتعلمون السياسة فيها . أيها العريف . ابدأ السير ! (الكولونيل يستدير متجها إلى مؤخرة المسرح . السجناء يسيرون إلى الخارج في صفين . حين يمر ديمتري بالقرب من فيرا يرمي إلى

الارض امامها بقطعة صغيرة من الورق فتضع عليها قدمها وتبقي في موقفها دون حراك) .

بيتر : (يعدّ المال الذي أخذه من الكولونيل) ادام الله بقاء سعادتكم . . . أرجو أن أرى وجبة جديدة من هؤلاء في القريب العاجل ، (فجأة يلمح ديمتري خارجاً من الباب فيندفع نحو الباب صارخاً) ديمتري . . ولدي . . . الهي ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ أيها الكولونيل إنه بري . اؤكد لكم انه بريء . إنني مستعد أن اشتري حريته بما تريدون . خذ نقودك (يرمي النقود على الارض) خذ كل ما املك واعطني ولدي . . ايها الاشرار . ايها الاشرار إلى أين تأخذون ولدي ؟ .

الكولونيل : إلى سيبيريا أيها العجوز الأخرق .

بيتر : لا . . لا . . . خذني بدلاً عنه .

الكولونيل : انه فوضوي .

بيتر : انك تكذب . . انه بريء (يدفعه الجنود ببنادقهم إلى الداخل ويغلقون الباب خلفهم بعد خروجهم) . . . ديمتري ، ديمتري ابني ، فوضوي ، فوضوي هدّام (يسقط على الارض مغشيا عليه) .

فيرا : (لم تزل جامدة دون حراك . ثم تنحني فتلتقط

قطعة الورق من تحت قدمها وتقرأ فيهـا) « دار رقم ٩٩ شارع جيرنـا فايـا في موسكـو . . . لكيما تختفي كل نوازع الطبيعة في ، عليّ إلا أحب ولا ادع أحدا يحبني ، إلا اشفق عـلى احـد ولا اطلب الشفقـة من أحـد ، إلا أتزوج ولا أدع أحـدا يتـزوجني . . حتى يـأتي اليـوم المـوعـود » أخي سـأحفظ العهـد لـك وسأنتقم لك (تقبل الورقة) .

(تبقى فيـرا جامـدة بمكانها والـورقـة بـين يـديهـا . ويـدخل مـايكل ويـرى بيتر مـطروحـا عـلى الارض فيسرع وينحني عليه) .

ـ ستار ـ

الفصل الأول

المنظر : : ـ دار رقم ٩٩ شارع جيرنا فايا في موسكو . غرفة كبيرة في سطح الدار مضاءة بمصابيح نفطية مدلاة من السقف . رجال مقنعون يقفون متباعدين وصامتين . باب في مؤخرة المسرح يقف عليها حارس شاهر السيف مقنع الوجه أصفر الثياب . دقات منتظمة على الباب . يدخل اثرها أشخاص مقنعو الوجوه وقد لفوا أجسامهم بعباءات سود واسعة .

كلمة السر (من الخارج) ـ المحنة سبيلنا إلى النور .

الجواب (من الداخل) ـ الدم سبيلنا إلى الحرية .

(الساعة تدق . يجلس المتآمرون على شكل نصف دائرة وسط المسرح) .

الرئيس : ما الكلمة ؟

المتآمر الأول : نابات(*)

الرئيس : وما جوابها ؟

المتآمر الثاني : كاليت .(*)

الرئيس : ما الساعة ؟

(*) نابات وكاليت ، اسما كتابين ثوريين للكاتب الفوضوي الروسي تكاشيف .
المترجم

المتآمر الثالث : ساعة العذاب .

الرئيس : أي يوم ؟

المتآمر الرابع : يوم الارهاب .

الرئيس : أي عام ؟

المتآمر الخامس : عام الامل .

الرئيس : كم عددنا ؟

المتآمر السادس : عشرة تسعة ثلاثة .

الرئيس : فتح المسيح العالم بعدد أقل من هذا . ما هي رسالتنا ؟

المتآمر السابع : تحقيق الحرية .

الرئيس : ما عقيدتنا ؟

المتآمر الثامن : الابادة .

الرئيس : ما واجبنا ؟

المتآمر التاسع ـ الطاعة .

الرئيس : ايها الرفاق . الاجابات صحيحة فليس بيننا غريب . فلنرفع الاقنعة ليرى احدنا الآخر . (يرفع المتآمرون الاقنعة عن وجوههم) وسيتلو مايكل القسم علينا .

مايكل : لكيما نقضي على نوازع الطبيعة في نفوسنا وأجسامنا علينا أن لا نحب وأن لا ندع احداً يحبنا . أن لا تأخذنا الشفقة بأحد وأن لا نطلبها من أحد . أن لا نتزوج ولا ندع أحداً يتزوجنا ، حتى يأتي اليوم

الموعود . علينا أن نطعن في الظلام وأن ندس السم في الشـراب . علينـا أن نحـرض الابن عـلى أبيــه والزوج على زوجه . علينا أن نضحي ونقتل وننتقم دون ما خوف أو أمل أو طموح .

الرئيس : : هل نحن موافقون ؟

الجميع : موافقون. (يتفرقون في مختلف اتجاهات المسرح) .

الرئيس : لقد مضى موعد عودتها ولما ترجع بعد .

مايكل : يا ليتها كانت معنا الآن، فبدونها لا نقدر على عمل .

الكسيس : الا يجـوز انها اعتقلت أيهـا الـرئيس ؟ لأن البـوليس كان يتعقبها كما أعلم .

مايكل : «إنك لتعلم دوماً الشيء الكثير من حركات البوليس في موسكو . في الحقيقة أكثر مما ينبغي أن يعرفه مناضل شريف .

الرئيس : إذا مـا اعتقلها هؤلاء الكـلاب حقـا ، فـإن الـرايـة الحمـراء سترتفـع على المتـاريس في كـل شـارع من شـوارع موسكـو وستبقى ترفـرف عـاليـا حتى نعـثر عليها . (بلهجة اهـدأ) لقد كـان ذهابهـا إلى حفلة الاستقبال الرسمية حماقـة منها . وقـد قلت لها هـذا ولكنها اصرت عـلى الذهـاب إليها لأنها تـريد ـ كـما تقول ـ أن ترى القيصر وبطانته اللعينـة وجها لـوجه ولمرة واحدة على الاقل .

الكسيس : تذهب إلى حفلة الاستقبال الرسمية !؟

مايكل : أنا لا يداخلني الخوف عليها، لأن القبض عليها أصعب من القبض على ذئبة ضارية واخطر منه اضعافا . اضافة إلى هذا فإن تنكرها كان متقناً ، وحفلة اليوم تنكرية . لكن أيها الرئيس هل هناك اخبار جديدة من القصر الملكي ؟ عجبا ما الذي يفعل هذا الطاغية السفاح غير تعذيب ولده الوحيد ؟ وبالمناسبة فمن أي نوع من الجراء هذا الجرو القيصرون(*) ؟ هل رآه احد منكم ؟ أننا نسمع انباء غريبة عنه ، فقد قيل إنه يحب الشعب . ولكن لا يمكن أن يكون ابناء الملوك كذلك لأن تربيتهم ونشأتهم تحول دون ذلك .

الرئيس : منذ أن عاد من الخارج قبل عام وأبوه يحجزه في سجن ضيق بالقصر .

مايكل : ياله من اعداد رائع ليخلق منه طاغية جديداً في المستقبل . سؤالي ايها الرئيس عما إذا كانت لديك انباء جديدة عن القصر .

(*) قيصرون في الاصل هو ابن يوليوس قيصر القيصر الروماني المشهور من زوجه كليوباترة ملكة مصر . وهو الذي صار فيها بعد ملكاً على مصر باسم بطليموس الرابع عشر . وقد جرى بعض قياصرة الرومان على اطلاق لقب قيصرون (ومعناها القيصر الصغير) على اولياء عهودهم . وقد أخذ اباطرة الروس عنهم هذه التسميات فأطلقوا على انفسهم لقب القيصر Czar وعلى أولياء عهودهم لقب القيصرون أو القيصر الصغير Czarevitch .

المترجم

الرئيس : نعم ، سيجتمع مجلس الوزراء غدا في القصر الملكي في الساعة الرابعة لبحث أمر سري خطير لم تتوصل هيئتنا إلى معرفة كنهه بعد .

مايكل : لن يكون اجتماع الوزراء في قصر الملك الا لتدبير خطة دموية جديدة. ولكن في أية صالون سيجتمعون .

الرئيس : (يقرأ من رسالة أمامه) في الصالة ذات الستائر الصفر والمسماة صالة الامبراطورة كاترين .

مايكل : أنا لا أهتم بهذه التسميات الرنانة ، وإنما يهمني معرفة موقعها .

الرئيس : هذا ما لا أعرفه فأنا أكثر علماً بدخائل السجون مني بدخائل القصور .

مايكل : (مخاطبا الكسيس فجأة) اين تقع هذه الغرفة يا الكسيس؟

الكسيس : انها في الطابق الأول تطل على ساحة القصر الداخلية ، ولكن لم تسأل عن ذلك يا مايكل ؟ .

مايكل : لا لشيء أيها الغلام ، وإنما يطيب لي أن اتتبع حياة القصر وحركاته. وأنا أعلم بأنك تستطيع أن أليس كذلك؟ تزودني عن شؤون القصر بالشيء الكثير ، لعل كل طالب طب في موسكو يعرف الكثير عن قصر الملك . إنه قسم من واجباتهم على ما أظن . . .

الكسيس : (لنفسه) ماذا ؟ هل يمكن لمايكل أن يشك بي ؟ أني لأحسُّ في تصرفاته معي هذه الليلة شيئاً غريباً .

: يا الهي . . . ! لماذا تأخرت حتى الآن ؟ أن نيران الثورة المتأججة في النفوس لتنقلب رماداً بارداً حين تغيب عن هذا المكان .

مايكل : هل تعالج مرضى كثيرين في عيادتك ، أيها الفتى ؟ .

الكسيس : هناك مريض واحد مشرف على الهلاك وأود من صميم الفؤاد أن اشفيه ولكنني لا أستطيع .

مايكل : ومن هو ؟ .

الكسيس : روسيا ، امنا الكبرى .

مايكل : إن روسيا لن يشفيها غير سكين الجراح ولن ينجح فيها شيء غير القطع والبتر . أما أساليبكم الطبية فإني لا أميل إليها كثيراً .

الرئيس : بروفسور مارفا . . ! لقد قرأنا مقالك الاخير وهو رائع حقا .

مايكل : وما كان موضوعه يا أستاذ ؟ .

البروفسور : موضوعه أيها الرفيق العزيز هو « الاغتيال وسيلة من وسائل الاصلاح السياسي » .

مايكل : أني لا القي بالا للقلم والقرطاس في الثورات . بل أعتقد أن خنجراً واحداً مرهف الحد أنفع من مائة مقال . ومع ذلك فلنقرأ هذا الاثر الادبي الجديد . اعطني المقال لاقرأه عليكم .

البروفسور : لا أيها الرفيق انك تلحن بالقراءة كثيراً . دع الكسيس يقرأه .

مايكل : نعم انه لبق اللسان رقيقه كما لو كان من أولاد الذوات الارستقراطيين . أما بالنسبة لي فإني لا أهتم بالنحو ما دمت اؤدي المعنى واضحاً .

الكسيس : (يقرأ) « سيطر الحاكمون الطغاة على الماضي ودسوه باعمالهم . أما نحن فلنا المستقبل وعلينا أن نجعله مستقبلا شريفاً نقياً » . (يتوقف عن القراءة) نعم فليكن المستقبل شريفا نظيفا ولتكن لنا ثورة واحدة على لاقل لا تقترن بالاجرام ولا تتغذى بسفك الدماء .

مايكل : لقد خاطبونا بلغة السيف . وبلغة السيف سنرد عليهم . وأنت يا الكسيس أراك لا تصلح لنا . يجب أن لا يكون في هذا المكان إلا رجال اخشوشنت أيديهم من العمل أو تخضبت بالدماء .

الرئيس : مهلا يا مايكل مهلا فإنه اشجعنا جميعا واقوانا قلبا .

مايكل : (لنفسه) عليه أن يدخر شجاعته فإنه سيحتاجها بعد قليل هذه الليلة .

(يسمع صوت زلاقة في الخارج . ثم دقات على الباب) .

صوت من الخارج : المحنة طريقنا إلى النور .

الجواب من حارس الباب : الدم طريقنا إلى الحرية .

مايكل : من القادم ؟ .

(تدخل فيرا ملتفة بازار واسع . ترميه عنها فتبدو بملابس سهرة كاملة وأنيقة) .

فيرا : النصر للشعب ! .

الرئيس : أهلا وسهلا فيرا ومرحبا . لقد ران علينا الضجر في غيبتك وكاد أن يهلكنا . أما وقد عدت الآن فإن نجم الحرية قد اشرق علينا من جديد ليبدد من حوالينا هذه الظلمة الحالكة .

فيرا : انها لظلمة حاكمة حقا أيها الرفاق . لقد طعنت روسيا في الصميم . ان المدعو ايفان والذي يسميه اتباعه بالقيصر يتهيأ الآن ليصوب إلى أمنا الكبرى ، الروسيا ، اخطر طعنة مميتة لم يتح لطاغية قبله أن سدد مثلها إلى حيوات الناس وحرياتهم .

مايكل : وماذا فعل ؟ .

فيرا : غدا سيعلن الاحكام العرفية في جميع أنحاء روسيا .
الجميع (بصوت واحد) ـ الاحكام العرفية . . .
لقد ضعنا . . . لقد هلكنا .

الكسيس : الاحكام العرفية ؟! . . مستحيل .

مايكل : ايها الغر ! ما من شيء مستحيل في روسيا إلا الاصلاح .

فيرا : نعم . . الاحكـام العرفيـة . لقـد سلب من شعبنـا آخر حق له كان يتمسك بـه . وغدا ، بـلا محاكمـة ولا استئناف . وحتى بلا اتهام ، سيؤخذ اخواننا من بيوتهم وعائلاتهم ليقتلوا في الشوارع قتل الكلاب ، أو ليـرسلوا إلى سيبريـا ليدفنـوا أحيـاء في الجليـد أو ليمـوتوا صبـرا وجوعـا في اقبية السـجـون أو لتتعفن وتهترىء أجسامهم من العمل بالمناجم .

اتدرون ما تعني الاحكام العرفية ؟ انها تعني القضاء عـلى الشعب بـأســره . فغـداً ستمتــلىء الشـوارع بالشرطـة والجنود وسينتصب الحـراس على كـل باب وعلى كل دار حتى تخلو الشـوارع لهم فلا يسـير فيها إلا الخـائن أو الجاسـوس . ونحن ، هنا ، أي خـير يـرجى منا بعـد الآن لـروسيـا ؟ إننا سنبقى قعيدي جحورنا التي سنختفي فيها فلا نلتقي إلا خلسة ولا نتكلم إلا همسا ؟ .

الرئيس : ما علينا إلا الصبر والاحتمال .

فيرا : لقد عانينا وتحملنا ما فيه الكفاية ، وقد حانت ساعة البطش والانتقام .

الرئيس : لقد تحمل الشعب وحده كل العبء حتى الآن .

فيرا : ذلـك لأنه مـا كان يفقـه شيئاً . ولكننـا نحن معشر الفـوضويـين أمـا وقـد ارشـدنـا الشعب إلى شجـرة

المعرفة وأكـل منها ، فـإن أيام العـذاب الصامت في روسيا قد آذنت بالانتهاء .

مايكل : الاحكام العرفيـة ! انها لنذيـر مخيف تحملينه إلينـا يا فيرا .

الرئيس : انه قرار الحكم بالموت على الحريات في روسيا .

فيرا : أو اشارة البدء بالثورة .

مايكل : اواثقة أنت من صحة الخبر ؟ .

فيرا : هذا هو المرسوم الامبراطوري وقـد سرقتـه بنفسي في الحفلة من شاب سخيف هو أحـد سكرتيـري الامير بول وكان قد اعطي له ليستنسخه .

وهذا هو سبب تأخري (تعطي المرسـوم إلى مايكـل الذي يبدأ قراءته) .

مايكل : « بناء على ما تقتضيه المصلحة العامـة . . . الاحكام العـرفية . . . بـأمر من الاب الحنـون لشعبه » . . . أب الشعب ! .

فيرا : نعم الاب الـذي سوف لا يخلد ذكـره ولا تغفـر لـه ذنوبه . والذي ستصير مملكتـه إلى جمهوريـة ، ذلك لأنه سلبنا حتى قوت يومنا .
وحتى صـار وجوده حـائلا ابـديـا بيننـا وبـين العـزة والمجد والحق .

الرئيس : اذن فلا بد أن اجتماع مجلس الوزراء غدا سيكون لهذا الغرض . فإن المرسوم لم يوقع بعد .

الكسيس : إنه لن يوقع ما دام لي لسان ادافع به .

مايكل : أو ما دامت لي يد اطعن بها .

فيرا : الاحكام العرفية ! . . . رباه ما أهون قتل الالوف من الناس وأسهله على هؤلاء الملوك . بينما نعجز نحن عن التخلص من واحد من هؤلاء المتوجين في أوروبا . عجبا ما هي هذه « الجلالة » البغيضة في هؤلاء الملوك والتي تحيل اليد القوية ضعيفة ترتعش ، والنصل المرهف الحد كليلا لا يقطع ، والطلقة المميتة خائبة لا تصيب ؟ اليسوا بشراً مثلنا ؟ أما لهم مثل مالنا من عواطف وأحاسيس ؟ ألا يتعرضون لمثل ما نتعرض له من أمراض ؟ أليسوا من لحم ودم لا يختلفون عنا ؟ اذن فما هو هذا السر أو ما هي هذه القوة التي عندهم والتي بعثت الرعشة في أوصال أوكلياتي وهو في اللحظة الحاسمة في حياة ايطاليا ، والتي جعلت اعصاب كيدو تنهار وكانت حديدا ؟ فليأخذ الطاعون هؤلاء الاغبياء في نابولي وبرلين واسبانيا . أنه ليبدو لي بأني إذا وقفت يوماً ما وجها لوجه أمام واحد من هؤلاء المتوجين فإن بصري ليكون أحد وأنفذ ، وهدفي

اوضح وأبين . وأن جسمي كله ليكتسب قوة لم تكن له من قبل .

فكروا معي . ما الذي يقف بيننا وبين الحرية في أوروبة ؟ انهم حفنة كهول مخرفين مترهلين عجزة ضعاف يستطيع أي صبي صغير أن يقضي على الواحد منهم مقابل دانق واحد فقط وتستطيع أية امرأة أن تخمد انفاسه بطعنة واحدة في جنح الظلام . هؤلاء هم الموانع التي تحول بيننا وبين حريتنا . ولكن يبدو لي أن نسل الرجال الشجعان قد انقطع عن هذه الارض أو أن هذه الدنيا المغبرة القبيحة قد عقمت عن أن تلد مثلهم بعد الآن ، وإلا لما ظل واحد من هؤلاء الكلاب المتوجين حيا يدنس أرض الله بوجوده دقيقة واحدة .

الجميع : (بصوت واحد) جربينا . . . جربينا . . . جربينا .

مايكل : وسوف نجربك أنت أيضاً يوما ما يا فيرا .

فيرا : اتمنى على الله أن تفعلوا ذلك . ألم اعد بالثأر ، ألم اقسم بالقضاء على نوازع الطبيعة في . فهل تعتقد بأني سوف ارجع عن قسمي ووعدي .

مايكل : (للرئيس) الاحكام العرفية أيها الرئيس . . . تصور ذلك . أن الوقت أضيق من أن يضيع بالكلام فأمامنا حتى اجتماع مجلس الوزراء غدا اثنتا

عشرة ساعة فقط . وبأقل من هذه المدة يستطيع الرجل منا أن يطوح بالعائلة المالكة كلها .

الرئيس : صحيح ! أو أن يطوح برأسه على الاقل !.

(مايكل والرئيس ينسحبان إلى احدى جهات المسرح ويتهامسان .

فيرا تأخذ المرسوم الامبراطوري وتقرأه لنفسها . الكسيس يراقبها مدة ثم يتقدم نحوها فجأة) .

الكسيس : فيرا !.

فيرا : الكسيس أنت هنا ! يالك من غلام غر . ألم أتوسل إليك مراراً أن تبتعد عن هذا المكان . فنحن هنا قد نذرنا جميعنا انفسنا للفداء والعذاب وقد كتب علينا أن نموت قبل الاوان . ولكن حرام على وجهك الشاب الوضاء أن يموت الآن . انك يا الكسيس اصغر من أن تموت .

الكسيس : لا يمكن لامرىء ما أن يكون أصغر من أن يموت في سبيل وطنه .

فيرا : ولِمَ تأتي إلى هنا كل ليلة ؟.

الكسيس : لأني احب الشعب .

فيرا : ولكن قد يفتقدك اخوانك في الكلية ويلاحظون غيابك فيتعقبوك . الا تتصور أن بينهم بعض الخونة والجواسيس . فما أكثرهم في الجامعة هذه الايام .

آه ! يجب أن تذهب من هذا المكان يا الكسيس . فأنت ترى إلى أية درجة من اليأس قد اسلمنا العذاب ، وأرى أن لا مكان لذوي النفوس الطيبة من أمثالك بيننا . أرجوك أن لا تعود إلى هنا ثانية .

الكسيس : لمَ تنزليني هذه المنزلة الصغيرة ولماذا اظل حيا بينما يتساقط اخواني صرعى من حولي .

فيرا : لقد حدثتني مرة عن امك . وقلت لي انك تحبها كثيراً . فكر بها ولاجلها الآن .

الكسيس : ليس لي من أم الآن إلا الروسيا . وحياتي ملك لها ، ان شاءت ضنت بها أو نبذتها . ولكني اتيت الليلة لاراك . فقد قيل لي انك مسافرة غدا إلى نوفوكراد .

فيرا : نعم لا بد من هذا . فإن الضعف والخور قد تسربا إلى قلوب جماعتنا هناك . وسأذهب إليهم لأذكي جذوة الثورة في نفوسهم حتى اجعلها ناراً محرقة ساطعة تعمي أبصار كل ذوي التيجان في أوروبا . وإذا ما تم اعلان الأحكام العرفية فإن حاجتهم إليّ هناك ستكون أشد وأقوى . ان تعسف الطغاة لا حدَّ له وأن لصبر الشعوب حداً يصل إليه ثم ينفجر . إن صرعانا فوق المشانق ووراء المتاريس قد جاوزوا

الحصر ، ولكن حان الأوان للطغاة ليكونوا هم الصرعى بعد الآن .

الكسيس : يشهد الله بأني معك في كل هذا . ولكن يجب أن لا تسافري إلى نوفوكراد لأن قوات الشرطة تتعقبك وتفتش عنك كل قطار ومعها الأوامر بأن تلقي بك حال القبض عليك بأقذر زنزانة في القصر الملكي . . . واني لاعرفها جيداً ولا يهمك كيف . . . لكن المهم أن تعلمي أن فقدك من بيننا سيحرم عيوننا بهجة النظر ويحرم الامة رائدتها والثورة قديستها والحرية رسولتها . . . فيرا . . . يجب أن لا تذهبي . . .

فيرا : انك على حق . فسأبقى هنا لأمد في عمري فترة أخرى من أجل قضية الوطن والحرية .

الكسيس : نعم يجب عليك هذا . . . فإن فقدك طعنة حقيقية للروسيا في الصميم . وبه أيضاً سأفقد أنا كل أمل وكل . . فيرا انك جئت إلينا الليلة بخبر مفزع ـ الاحكام العرفية . . . انها لشيء فظيع . ولكنني لم أكن أعلم بها من قبل . اقسم لك على هذا .

فيرا : ومن اين لك أن تعلم بها ؟ لقد وضعت الخطة بتكتم واحكام . وهذا القيصر العجوز الذي تخضبت يداه بما سفك من دماء هذا الشعب وتحجر

قلبه من كثرة ما ارتكب من آثام . ان له دهاء المتآمرين . بل انه لأشد منا ـ نحن المتآمرين ـ مكراً ودعاء . . . اني لاعجب حقا كيف يمكن لروسيا أن تحوي بين جنبيها في آن واحد قلبين مختلفين كل الاختلاف ، قلبا رقيقا طيبا مثل قلبك وآخر قاسياً متحجراً مثل قلبه .

الكسيس : لم يكن الامبراطور كذلك دائماً يا فيرا . . . فقد أتى عليه حين من الزمان كان فيه يحب شعبه حقا . . . حتى جاءه هذا البلاء اللعين . . . الامير بول مارالوفسكي فقلب آراءه وصيره إلى هذا الحال . ولكني غدا سأكلم الامبراطور واستعطفه بشأن حقوق الشعب . . . اقسم لك على هذا يا فيرا .

فيرا : أنت تكلم الامبراطور !! . يالك من صغير ساذج !! وكيف . . ؟ أن الامبراطور لن يرى إلا من يحكم عليهم بالاعدام . ثم ما عسى أن يبلغ منه صوت استرحامك الرقيق وهو الذي لم تتفتح نفسه المغلقة لصرخات الاستغاثة المدوية التي تطلقها رعيته الحبيسة ولم يتحرك قلبه الصلد لحشرجة وانات شعبه المحتضر . .

الكسيس : (لنفسه) ومع هذا فسأكلمه . . . فهم يستطيعون أن يفعلوا معي كل شيء إلا قتلي . . .

البروفسور : (إلى فيرا) ها هي ذي المنشورات يا فيرا . . . فانظريها إن كانت وافية بالمرام .

فيرا : دعها لي . فسأنظر فيها بعد حين . . . (لنفسها) ما اجمله ! وما أنبله . . . انه ليبدو لي هذه الليلة وكأني لم اره من قبل . . . أن الحرية لتغبط حقا لأن لها عاشقا مغرماً بها مثله .

الكسيس : حسنا أيها الرئيس ، ما الذي يدعوك إلى مثل هذا التفكير العميق .

مايكل : اننا نفكر في أحسن الطرق لصيد الخنازير البرية . (يتهامس مع الرئيس ثم يأخذه ناحية) .

البروفسور : (إلى فيرا) وهذه أيضاً رسائل الرفاق من باريس وبرلين . كيف تريدين أن يكون جوابنا لهم . ؟ .

فيرا : (تأخذ الرسائل بصورة آلية ، وتستمر وكأنها تكلم نفسها) الم اقسم بأن لا أحب ولا أُحب . . . ولكني احبه فعلا . . . انه حمق وجنون . . . جنون . . . خيانة . . . وأنا ، أنا نفسي الخائنة !! . . . ولكن لماذا جاء إلينا بهذا الوجه الوضاح والشباب الريان وهذا القلب المتحرق للحرية وهذه الروح النقية البيضاء ؟ ولم يجعلني اشعر وكأني ارتضيه ملكا علي . . . علي أنا

الجمهورية المبدأ . اواه . . . انها حماقة منك يا فيرا . . . حماقة وجنون . . . وخيانة لنفسك . . . ماذا ؟ هل تبدد قسمك كالماء المسكوب وانتهي . . . تذكري من أنت ؟ انك فوضوية . . . فوضوية . . . .

الرئيس : (إلى مايكل) ولكن قد يقبض عليك يا مايكل .

مايكل : لا أعتقد ذلك . فسأرتدي بدلة ضابط بالحرس الامبراطوري .

والكولونيل الموكل بالحراسة من جماعتنا . ولا تنسَ أن الغرفة في الطابق الأول فأستطيع أن اسدد الرمية من مكان بعيد .

الرئيس : وهل تريد ان نخبر الرفاق بذلك ؟ .

مايكل : كلا أبداً ولا كلمة ، فبيننا هذه الليلة جاسوس .

فيرا : (إلى البروفسور) أهذه هي المنشورات . انها وافية بالمرام . . . نعم انها وافية بالمرام . . . ارسل خمسمائة نسخة منها إلى كل من كييف واوديسا ونوفوكراد وخمسمائة إلى وارشو . وارسل ضعف هذا العدد ليوزع في الاقاليم الجنوبية ، ورغم أن هؤلاء الفلاحين الروس الأغبياء لا يعيرون منشوراتنا إلا اهتماماً قليلاً ، ولا يعيرون تضحياتنا من أجلهم الا اهتماما أقل . . . ولهذا فحين تدق

الساعة الموعودة فإن الضربة يجب أن تأتي من المدن لا من الارياف . . .

مايكل : نعم ويجب أن تكون بحد السيف لا بريش الطيور(*) .

فيرا : واين الرسائل الواردة من بولنده ؟ .

البروفسور : ها هي ذي .

فيرا : بولنده الشقية المسكينة . . . ان النسر الروسي لينهش قلبها نهشا . . يجب أن لا ننسى رفاقنا في بولنده(**) .

الرئيس : (إلى مايكل) أواثق انت من صحة ما تقول ؟ .

مايكل : طبعا وأراهن على ذلك بحياتي .

الرئيس : فلنحكم غلق الابواب اذن . (إلى الكسيس) الكسيس ايفانوفتش !! انك دخلت زمرة الرفاق هذه بصفتك طالبا في مدرسة الطب في موسكو لِمَ لَمْ تخبرنا من قبل بهذه الخطة الجهنمية . . اعلان الاحكام العرفية ؟ . . .

الكسيس : أنا ؟ ايها الرئيس .

(*) ريش الطيور كناية عن الاقلام التي كانت تعمل منها . والمقصود أن الخلاص لن يتم إلا بالثورة والعنف أما الكتابة والكلام فلا نفع فيهما .

(**) النسر هو شعار القياصرة الروس . وكان الروس ـ كما هم الآن ـ قد احتلوها وسلبوها استقلالها . (المترجم)

مايكل : نعم أنت . فأنت تعلم بها دون شك . ان أمراً خطيراً كهذا لا يتقرر في يوم وليلة . لمَ لمْ تخبرنا به من قبل . لو انك اخبرتنا به منذ أسبوع على الاقل لكان لدينا الوقت الكافي لبث الالغام واقامة المتاريس ، للضرب ضربة واحدة على الاقل من أجل الحرية . . . اما الآن فقد فات الأوان . . لماذا كتمت السر عنا . اني اسأل ؟ .

الكسيس : اخي مايكل . انك تظلمني بهذا وحق الحرية . فإني لم اعرف بهذا القانون البغيض من قبل واقسم على هذا . اني لم اعرف به من قبل . وكيف يتسنى لي أن ادري به ؟ .

مايكل : ذلك لأنك جاسوس خائن . . . اين ذهبت حين تركتنا ليلة اجتماعنا الأخير .

الكسيس : إلى داري طبعاً ، كالمعتاد .

مايكل : كذاب . لقد كنتُ في اعقابك . لقد خرجتَ من الاجتماع قبل منتصف الليل بساعة واحدة . وذهبت ملتفاً بإزارك الكبير إلى ساحل النهر في موقع يبعد ميلا واحداً عن الجسر الثاني . ومن هناك استأجرت زورقا عبرت به النهر ونقدت صاحبه عملة ذهبية ، أنت طالب الطب الفقير !!! ثم عدت ادراجك وعبرت النهر من مكان ثان ثم دلفت إلى

الشارع الكبير واختفيت وراء احـد الاعمدة وظللت هناك مدة طـويلة حتى لخطر ببـالي أن ابادرك بـطعنة مسكـين فـأقضي عليـك لـولا اني من هـواة الـرمي بالرصاص . وهكذا تصورت انك ـ بهذه الطريقـة ـ قد ضللت مطارديك . أليس كذلك ؟ ولكنني ـ ايها الابله ـ كلب صيـد عقور لا افقـد الاثر أبـداً . لقد تتبعتـك من شارع إلى آخـر حتى رأيتك آخـر الامـر تصل قصر سانت اسحـاق الملكي وتدلف إلى داخله بعـد أن تهمس للحارس بكلمـة السر ثم تفتح بـابا خاصا من أبواب القصر بمفتاح كـان معك ثم تغيب داخل القصر الملكي .

المتآمرون : القصر الملكي . . ! .

فيرا : الكسيس ! .

مايكل : لقد انتظرتـك وانتظرتـك طويـلاً . . . انتظرت ليلة كـاملة . . . ليلة طـويلة مـوحشـة من ليـالي هـذا البلد . . . انتظرتك لتخـرج فأقتلك بمكـانك وثمن الخيانة ما يزال حارا في يديـك . . . لكنك لم تخـرج ولم تتـرك القصر . . . لقـد رأيت الشمس تبزغ من خـلال الضبـاب الاصفـر وتـرتفـع ـ فـوق المـدينـة الغافية ـ حمراء قانية بلون الدم مؤذنة ببدء يوم جديد من الـظلم والارهـاب والعـذاب عـلى روسيـا . . .

ولكني لم ارك تخـرج من القصر . . وهكـذا فـإنـك تبيت الليـالي في القصر ، وتعرف كلمـة السر لكـل ليلة ، وتملك مفتـاحـاً خـاصـاً لإحـدى الابـواب السرية !! أليس كذلك ؟ انـك جاسـوس . انني ما وثقت بـك يـومـاً مـا أبـداً ، وأنت بهـاتـين اليـدين البيضاوين الناعمتين وبهذا الشعـر الذهبي المتمـاوج وهذه الرقة المتناهيـة . وهذا الجسم الـذي لا يحمل أثراً من آثار التعـذيب والنضال . انـك لا يمكن أن تكون من جمهور الشعب . . . أنت جـاسوس . . . جاسوس . . . عميل . . . خائن . . . .

الجميع : اقتلوه . . . اقتلوه . . . (يشهرون خناجرهم) .

فيرا : (تندفع واقفة أمام الكسيس) ابتعدوا عنه جميعا . ! ابتعد عنه يا مايكل . . ! لن يجرؤ أحد منكم على أن يمسه بشعرة فإنه انبلنا قلبا .

الجميع : اقتلوه . . . اقتلوه . . . انه جاسوس .

فيرا : إذا جرؤ احدكم على مسه بإصبعه فـأني سأتـرك هذا المكان وانفصل عنكم حالا .

الرئيس : فيـرا ! ألم تسمعي ما قـال مايكـل عنه . انـه قضي ليلة كـاملة في القصر ويعـرف كلمـة السر وعنـده مفتاح خاص لباب سري . فـما عسى أن يكون ، إن لم يكن جاسوسا فعلا .

فيرا : صه !! فإني لا اصدق مايكل . . . هذا كذب . . . هذا افتراء . . . قل لهم يا الكسيس انه افتراء . .

الكسيس : انه صحيح . لقد روى مايكل ما رأى . ولقد قضيت ليلتي تلك في قصر القيصر . لقد حدثكم مايكل بالصحيح .

المتآمرون : (يهجمون عليه) اقتلوه . . . اقتلوه .

فيرا : ابتعدوا عنه . . . أقول لكم ارجعوا عنه . . . الكسيس أنا لا اهتم بهذا . أنا اثق بك ، انك لا تشي بنا . انك لا تبيع قضية شعبك بدراهم معدودات . أنت شريف قل الحق . قل انك لست جاسوسا .

الكسيس : جاسوس ؟ انتم لتعلمون حق العلم بأني لست جاسوسا . أنا معكم ايها الرفاق حتى الموت .

مايكل : نعم موتك انت . . .

الكسيس : فيرا . . . أنت تعلمين بأني صادق .

فيرا : نعم اعلم ذلك جيداً .

الرئيس : ولم جئت إلى هنا ايها الخائن .

الكسيس : لأني أحب الشعب .

مايكل : اذن فلتذهب فداء لهذا الشعب . . .

فيرا : مايكل !! اعلم انك يجب أن تقتلني أولا قبل أن تمسه بأصبع واحد .

الرئيس : مايكل . اننا لن نستطيع التفريط في فيرا ، وما دامت رغبتها أن نبقيه حيا فلنحتفظ به هذه الليلة هنا فإنه لم يش بنا بعد لحد الآن .

(يسمع وقع أقدام جنود في الخارج ثم طرق على الباب)

الصوت : باسم صاحب الجلالة الامبراطور افتحوا الباب .

مايكل : بل ها هو ذا قد وشى بنا فعلا . ان هذا من صنيعك يا خائن .

الرئيس : اهدأ الآن يا مايكل فليس من الصحيح أن يأخذ بعضنا بخناق البعض الآخر في الوقت الذي يجب علينا فيه أن ننجو بأرواحنا .

الصوت : باسم حضرة صاحب الجلالة الامبراطور . افتحوا الباب .

الرئيس : ايها الرفاق . ضعوا الاقنعة على وجوهكم . وافتح أنت يا مايكل الباب . فهذا هو الآن سبيلنا الوحيد للنجاة .

(يدخل الجنرال كوتيمكن وبعض الجنود)

الجنرال : ان المواطنين الصالحين يجب أن يكونوا في بيوتهم قبل منتصف الليل بساعة واحدة على الاقل . كما أنه لا يجوز لاكثر من خمسة أشخاص الاجتماع بمكان واحد . فماذا تفعلون هنا ؟ ألم تقرأوا البيانات ايها الجماعة ؟ .

مايكل : كيف لا ولقد لطخت بها كل جدار نظيف في موسكو .

فيرا : اخرس ما مايكل . عفوا أيها الجنرال ، فإننا لم نعلم بهذه البيانات . فنحن في الحقيقة فرقة تمثيلية جوالة وقد وصلنا اليوم إلى موسكو قادمين من سامارا يحدونا الامل إلى أن نوفق إلى عرض بعض أعمالنا أمام حضرة صاحب الجلالة الامبراطورية القيصر .

الجنرال : ولكني سمعت قبل دخولي عليكم أصواتا صاخبة فلم كانت هذه الضجة ؟ .

فيرا : لقد كنا نتدرب على اداء مسرحية تراجيدية جديدة .

الجنرال : ان اجوبتك من الوضوح والاستقامة بحيث لا تصدق . تعالي اليّ وارفعي عن وجهك هذا القناع لارى من أنتِ . ويميناً بالقديس نيكولاس ، لئن كان جمال وجهك يضاهي رشاقة قوامك فأنت اذن لقطة ممتازة . تعالي اليّ ايتها الحسناء . فإني أود أن ابدأ برؤية وجهك قبل الآخرين .

الرئيس : رباه . . ! إذا ما اكتشف انها فيرا فقد قضي علينا جميعا !

الجنرال : كفى دلالا ايتها الحسناء قلت لك تعالي واسرعي بنزع القناع عن وجهك ، اسرعي وإلا امرت جنودي بنزعه .

الكسيس : أرجو أن لا تقترب منها ايها الجنرال كوتمكين .

الجنرال : ومن انت ايها الرجل حتى تتكلم بهذه الحذلقة إلى اسيادك .
(الكسيس يرفع القناع عن وجهه . الجنرال بدهشة كبيرة) صاحب السمو الملكي ولي العهد !! .

المتآمرون : ولي العهد القيصرون . لقد انتهينا . . . لقد هلكنا .

الرئيس : لقد كنت عالما بأنه جاسوس .

مايكل : (إلى فيرا) لم لم تسمحي لي بقتله . لم يبق لنا الآن إلا أن ندافع دفاع المستميت للخلاص من هذا المأزق .

فيرا : اطمئن فإنه لن يخون .

الكسيس : انها نزوة من نزواتي ايها الجنرال . فأنت تعرف أن والدي قد منعني عن العالم وحصرني بسجن ضيق في القصر . وما كنت لأطيق تلك الحياة لو لم يُدبر لي بين الحين والآخر الخروج من القصر في بعض الليالي خفية وتنكراً إلى بعض المغامرات العاطفية في المدينة . وقد عثرت هذه الليلة على هذه الجماعة الطيبة منذ بضع ساعات فقط .

الجنرال : وهل هم ممثلون حقا . ايها الامير .

الكسيس : نعم ، وممثلون طموحون كل همهم أن يمثلوا أمام الملوك فقط .

الجنرال : اني اثق بكلام سموكم . ولكني ظننت أني قد كسبت وكرا من أوكار الفوضويين وقد عثرت على صيد دسم .

الكسيس : فوضويون في موسكو ، وأنت على رأس شرطتها . . . هذا مستحيل يا جنرال . . . مستحيل .

الجنرال : هذا ما أقوله دوما إلى جلالة والدكم المعظم . لكنني علمت اليوم من مجلس الوزراء أن المرأة المدعوة فيرا سابوروف قائدة الفوضويين قد شوهدت هذا اليوم بالذات في موسكو . وحين علم الامبراطور بهذا الخبر هاج وارتاع حتى صار وجهه أبيض كالجليد وأعتقد اني لم أر من قبل إنساناً أخذ الرعب والهلع منه هذا المأخذ .

الكسيس : اذن فإن فيرا سابوروف هذه امرأة ذات خطر عظيم .

الجنرال : جدا ، يا صاحب السمو . انها اخطر امرأة في أوروبا كلها .

الكسيس : وهل قدر لك أن تراها يوما ما ، أيها الجنرال ؟ .

الجنرال : نعم . رأيتها منذ خمس سنوات حين كنت كولونيلا بسيطا وكانت هي يا صاحب السمو خادما في فندق ريفي . ولو كنت أعلم آنذاك أي مستقبل قذر ينتظرها ، لسلخت جلدها ومزقتها اربا اربا على قارعة الطريق . انها ليست امرأة على الاطلاق . انها الشيطان مجسما . فمنذ ثمانية عشر شهراً وأنا أحاول القبض عليها ولكني لم ارها خلال هذه المدة إلا مرة واحدة في شهر أيلول الماضي في ضواحي مدينة اوديسا .

الكسيس : وكيف تركتها تفلت من قبضتك ايها الجنرال ؟.

الجنرال : لقد كنت لوحدي آنذاك . وقد انقضضت للقبض عليها ولكنها قابلتني بالرصاص واصابت جوادي . . . ولكني إذا ما رأيتها مرة أخرى فلن اضيع الفرصة ولن ادعها تفلت هذه المرة أبدا . فقد وضع الامبراطور جائزة قدرها عشرون الف روبل ثمنا لرأسها .

الكسيس : أرجو أن يكتب لك كسب هذه الجائزة ايها الجنرال .

وبالمناسبة فإنك باقتحامك هذا المكان قد افزعت هذه الجماعة إلى اقصى حد وقطعت سير التمثيل . طابت ليلتك أيها الجنرال .

الجنرال : ولكن يجب أن أرى وجوههم قبل رحيلي يا صاحب السمو .

الكسيس : لا ايها الجنرال فأنت تعلم كم يتطير هؤلاء الغجر من تحديق الناس في وجوههم .

الجنرال : نعم ولكن يا صاحب السمو .

الكسيس : (بلهجة آمرة) ايها الجنرال ، انهم اصدقائي وهذا يكفي . . . طابت ليلتك وأرجو الا تذكر ولا كلمة واحدة عن مغامرتي البسيطة هذه . مفهوم ؟ .

الجنرال : هل لي أن اطمئن إلى سلامة عودتكم إلى القصر يا صاحب السمو . فإن حفلة الاستقبال قد اوشكت على الانتهاء وسموكم مطلوبون للحضور هناك .

الكسيس : سأذهب إلى هناك ولكني سأذهب وحدي . تذكر . . . ولا كلمة .

الجنرال : وغجريتك الحسناء هذه ايها الامير ! كان بودي أن أرى وجهها قبل رحيلي فإن لها عينين جميلتين تبدوان من وراء القناع !.
طابت ليلتكم يا صاحب السمو .

الكسيس : طابت ليلتك ايها الجنرال .

(يخرج الجنرال وجنوده)

فيرا : (تنــزع قنـاعهـا) يـا الهي لقــد نجــوت . . . وبفضلك . . . !

الكسيس : (يضغط على يديها) والآن ايها الـرفاق هـل وثقتم مني (يخرج) .

(المتآمرون مبهورون ساكتون)

ينزل الستار

الفصل الثاني

المنظر : ـ قاعة الاجتماع في قصر الامبراطور وقد علقت عليها ستائر صفراء . منضدة كبيرة وفي صدر القاعة الكرسي الامبراطوري وخلفه نافذة كبيرة تطل على الشرفة المؤدية إلى ساحة القصر الداخلية . الضوء خارج الغرفة يتضاءل بمرور الوقت .

الحاضرون : الامير بول مارالوفسكي ، الامير بيتروفتش ، الكونت وفالوف ، البارون راف ، الكونت بتوشوف .

الامير بتروفتش : وإذن فقد نال اميرنا الشاب الطائش العفو والغفران وهو اليوم عائد إلينا ليحتل مقعده بيننا في هذا الاجتماع .

الامير بول : نعم ، ان لم يكن حضوره هذا نفسه عقوبة اضافية له . فأنا أجد اجتماعات الوزارة متعبة جداً .

الامير بيتروفتش : طبعا ، لأنك تتكلم طول الوقت فيها .

الامير بول : كلا على العكس يا صديقي فالسبب هو اني اضطر للاصغاء أحيانا . إذ أن السكوت يتعبني .

الكونت روفالوف :وعلى أية حال ، فقد أصبح كل شيء هينا عليَّ ولي العهد بالمقارنة إلى حاله السابق عندما كان محجوزاً وليست له صلة بالعالم الخارجي وكأنه في السجن .

الامير بول : يا عزيزي الكونت ! من الخير لشاب عاطفي المزاج مثله أن يرى العالم دائماً من بعيد . والسجن الذي تستطيع فيه أن تأمر باعداد وجبات طعامك كما تشتهي ليس بالمكان السيِّيء على كل حال .

(يدخل ولي العهد فتنهض الحاشية لتحيته)

الامير بول : مساء الخير يا صاحب السمو . يبدو سموكم هذا المساء شاحب اللون قليلا .

ولي العهد : (بتؤدة وبعد برهة) احتاج إلى تغيير الهواء .

الامير بول : (باسماً) فكرة ثوروية خالصة !! ان جلالة والدكم يرفض بشدة أي نوع من الاصلاح في روسيا ولو كان في ترمومتر الحرارة .

ولي العهد : (بمرارة) لقد حبسني جلالة والدي ستة أشهر في سرداب من سراديب القصر . ثم اخرجني هذا الصباح فجأة ليريني مشهد اعدام عدد من

الفوضويين وقد آلمني كثيرا منظر هذه المجزرة البشرية الدامية . ولكنه لامر مشرف أن يرى المرء بعينيه كيف يموت هؤلاء البؤساء بشجاعة وطيبة خاطر .

الامير بول : حين تبلغ من العمر ما بلغتُ ، يا سيدي الامير ، فسوف تعلم جيداً أنه ما من شيء في الوجود أسهل من العيش الطالح والموت بطيبة خاطر . . .

ولي العهد : سهولة الموت عن طيبة خاطر ، هذا أمر لم تتعلمه بالتجربة بعد ، كما تعلمتَ العيش الطالح .

الامير بول : (هازا كتفيه) التجربة ، هو الاسم الذي يضعه الناس لاخطائهم . وأنا لا ارتكب الاخطاء .

ولي العهد : (بمرارة) هذا صحيح ، لكثرة الجرائم في أعمالك .

الامير بيتروفتش : (لولي العهد) كان الامبراطور قلقاً جداً لتأخر سموكم عن الحضور إلى حفلة الاستقبال ليلة أمس .

الكونت روفالوف : (ضاحك) لعله ظن بأن الفوضويين قد اقتحموا القصر واختطفوه .

البارون راف : لو وقع هذا فعلا ، لفاتك الرقص الرائع الذي تمتعت به أمس ايها الكونت .

الامير بول : والعشاء الرائع كذلك . فقد ابدع كرينكوراد في صنع السلطة المطبوخة . . . نعم !! قد تضحك يا بارون ، ولكن ثق أن طبخ السلطة أصعب بكثير من « طبخ الحسابات »(*) ومن يتقن عمل السلطة جيداً يمكنه أن يكون دبلوماسيا قديرا . فالمشكلة في كلتا الحالتين هو أن يعرف المرء بالضبط « مقدار الزيت الذي يجب أن يوضع في الخل » .

البارون راف : طباخ ودبلوماسي! تشبيه رائع . لو أن عندي ولدا فاشلاً لصيرته واحداً من هذين .

الامير بول : لكن والدك لم يطبق هذا الرأي عليك . أرجو أن تثق يا بارون بأنك مخطىء تماما حين تستهين بأمر الطبخ . فالثقافة تعتمد على اتقان فن الطهي . وبالنسبة لي فإن الخلود الذي اتمناه لنفسي هو أن اوفق إلى ابتكار نوع جديد من المرق ولكن ليس لي مع الاسف الوقت الكافي للتفكير في الامر جديا بيد انني اشعر به يجري في دمي . . . اجل انه يجري في دمي . . .

ولي العهد : من المؤكد أنك اخطأت في اختيار مسلكك في الحياة . فقد يلائمك حزام الطباخين الازرق أكثر من وشاح وسام الصليب الاعظم . . . وحتى في

(*) يلاحظ أن البارون راف هو وزير المالية . المترجم

تلك الحالة فما كان باستطاعتك ارتداء المئزر الابيض كما يفعل الطباخون ، لأنه سرعان ما يتسخ ويتلوث ، لأن يديك أيها الامير غير نظيفتين دوما .

الامير بول : (بانحناء) أتنسى ـ من اين تأتيهما النظافة ؟ وأنا ادير بهما شؤون والدكم .

ولي العهد : (بمرارة) لعلك تقصد سوء ادارتك شؤون والدي . . . فأنت الشؤم النابغ في حياته . فقد كان في قلبه بعض الحب والعطف على شعبه قبل أن تبرز أنت . ولكنك أنت الذي حجرت قلبه وغيرت طبعه وعلمته طرق الختل والخداع وجعلته مكروها من عامة شعبه وصيرته على ما هو عليه الآن ـ طاغية مستبدا .

(الحاشية ينظر بعضهم لبعض نظرات ذات معنى)

الامير بول : (بهدوء) حقا أن سموكم محتاج إلى تغيير الهواء . فقد كنت أنا أيضاً أكبر أولاد أبي ووريثه (يشعل سيكارة) واعلم بمشاعر الابن الاكبر الذي يمتد الاجل بحياة أبيه .
(ولي العهد يذهب إلى أقصى المسرح ويتكّىء على النافذة الكبيرة ناظراً إلى الخارج) .

الامير بيتروفتش: (للبارون راف) يا له من غر أحمق . انه سيرسل للمنفى أو لما هو اسوأ منه ان لم يتحفظ ويمسك لسانه .

البارون راف : نعم ، من أشد أخطاء المرء أن يكون صريحا .

الامير بيتروفتش: لعلها هي الحماقة الوحيدة التي لم تقارفها في حياتك أيها البارون .

البارون راف : نعم فالمرء أيها الامير لا يملك إلا رأساً واحداً فقط .

الامير بول : اطمئن يا عزيزي البارون اطمئن . . ! فإن رأسك هو آخر ما يرغب أي انسان في أخذه منك .

: (يخرج علبة السعوط ويقدم منها للامير بيتروفتش)

الامير بيتروفتش: (يأخذ قليلا من السعوط) شكراً أيها الامير شكراً !

الامير بول : لطيف . . أليس كذلك ؟ اني اعتدت أن اجلبه من باريس رأسا . لكن باريس يا عزيزي الامير قد تغيرت كثيراً هذه الايام . فإن عهد جمهورية الرعاع قد افسد كل شيء فيها . فقد زالت « الكوتليت إلا امبريال »[1] من الاسواق بزوال الامبراطور بونابرت وهذا بديهي طبعا . واختفت « الاومليت دورليان »[2] بذهاب آل اورليان . لقد افسد سوء

---

(١) نوع من شرائح اللحوم المقلية أو المشوية . المترجم

(٢) نوع من عجة البيض . المترجم

الادب ورداءة الطبخ كـل ما في فـرنسـة الجميلة من محاسن (يدخل الماركيز دي بوافـرارد) اهلا وسهـلا بالمركيز . أرجو أن تكون المركيزة بصحة جيدة .

الماركيز بوفرارد: أنت أعرف مني بها لانك ترى منها أكثر مما أرى .

الامير بول : (منحنيـا) ربما كنت أرى فيهـا أشياء خـير مما تـرى أنت .

فزوجتك ايها المركيز امرأة رائعة حقا ، تطفح حيوية ورقـة ، وتفيض لـطفـا ولبـاقـة فهي لا تني عن التحدث عنك حينما تنفرد .

الامير بيتروفتش: (ينـظر إلى الساعـة متضايقاً) لقد تـأخـر حضـرة صاحب الجلالة قليلا هذا المساء . أليس كذلك ؟ .

الامير بول : ما بالك تبدو منحـرف المزاج هـذا المساء ايهـا الامير بيتـروفتش ؟ أرجـو الا تكـون قـد تشـاجـرت مـع طبـاخـك هـذا اليـوم ، وانـك إذا مـا طـردتـه من خدمتك فإن هذه طامتك الكبـرى وبها ستفقـد جميع أصدقائك .

الامير بيتروفتش: اخشى الا يسعـدني الحظ لهذا التـوفيق ، فأرجـو الا تنسى - أيها الامير - أن جيبي ما يزال عامراً بالمال . عدا عن أنك واهم أيضاً فإن عـلاقتي بطبـاخي على خير ما يرام .

الامير بول : فما السبب اذن ؟ لا بدّ أن تكون قد استلمت اليوم رسائل من بعض الدائنين أو كتب تهديد من الآنسة فيرا سابوروف . أما أنا ، فالحقيقة أن نصف بريدي اليومي يتكون من هذين النوعين . ولكن يجب الا تجزع أيها الامير بيتروفتش ، فإني اجد يومياً في داري أعنف منشورات ما يدعى باللجنة التنفيذية ولكن يحرمني من قراءتها علمي بأنها مشحونة بالاغلاط الاملائية دائماً .

الامير بيتروفتش: أنت واهم في هذا أيضاً أيها الامير ، فإن الفوضويين ، لسبب أو لآخر ، قد تركوني بعيداً عن نشاطهم .

الامير بول : (لنفسه) نعم هذا صحيح . فعدم الاكتراث بالمرائين هو اقسى انتقام منهم .

الامير بيتروفتش: الحقيقة اني اشعر بالسأم من الحياة في هذه الايام . فمنذ أن انتهى موسم الاوبرا وأنا « شهيد خالد » من شهداء الضجر .

الامير بول : داء العصر ايها الامير . انه داء العصر . انك تحتاج إلى أشياء جديدة مثيرة . . . دعني أرى ما يفيدك . . . ها ، انك قد تزوجت مرتين . . فلم لا تحاول الآن ان تجرب . . . الحب . . . ولو مرة واحدة على الاقل .

البارون راف : الحقيقة ، لا استطيع فهم طبيعتك ايها الامير بول .

الامير بول : (باسما) يا عزيزي البارون . لو كانت طبيعتي قد خلقت لتناسب تفكيرك بدلا من أن تحقق مآربي ، لما كنتُ شيئاً مذكوراً في هذه الحياة .

الكونت روفالوف: يبدو لي أن كل شيء في هذه الحياة تناله بالسخرية والتهكم ايها الامير بول .

الامير بول : نعم يا عزيزي الكونت ، فالحياة أجل قدراً من أن نأخذها مأخذ الجد .

ولي العهد : (عائداً من موقفه قرب النافذة) إني لا أرى في طبيعة الامير بول غموضاً أبداً ، فهو قد يقتل في المساء أعز أصدقائه لا لشيء إلا ليكتب في تأبينه أحسن رثاء يلقيه على قبره في صباح اليوم التالي .

الامير بول : بالتأكيد . . . فإني لأفضل فقد اعز الاصدقاء على خسارة اسوأ الاعداء . فكسب الاصدقاء لا يكلّف المرء إلا التظاهر بالطيبة وحسن السريرة أحيانا . أما انعدام الاعداء فدليل على تفاهة الشخص .

ولي العهد : (بمرارة) إذا كان كسب الاعداء هو مقياس العظمة حقا ، فأنت ، أيها الامير بول ـ أعظم الناس قاطبة .

الامير بول : نعم ، أنت محق يا صاحب السمو. فانني لأعلم مقـدار مقت النـاس لي ، بـل وأعلم أني لأبغض وأكره شخص للناس في الروسيا كلها ، باستثناء والدكم طبعا . . . نعم باستثناء والدكم . . . ولكنه ـ مع الاسف ـ يضيق بهذه الكراهية ذرعا ويحمل لها هما ، أما أنا فأؤكد لسموكم بأني على العكس من هذا تماما (بحقد ومرارة) بل أنه ليطيب لي أحيانا أن اسير بعربتي في شوارع المدينة لأرى ـ اينما سرت ـ ملامح المقت وعلامات الكراهية نحوي وهي ترتسم على وجه الغوغاء الواقفين على قارعة الطريق بعيداً عني . . . انني اشعر آنذاك بسلطتي ، بمكانتي في روسيا . . احس بأني قوة في الروسيا . . . رجل واحد ضد ملايين . . ثم أني لا أطمح في أن أكون بطلاً شعبياً في يوم من الايام لتنهال على جبيني الازهار وأكاليل الغار في العام الأول ثم سرعان ما تليها أنواع الحجارة في العام الذي يليه . . . انني أفضل أن أموت بسلام وهدوء في فراشي .

ولي العهد : وبعد الموت ؟ .

الامير بول : (هازا كتفيه) ان الاستبداد هو الطابع السائد في مملكة السماء . . . لذا فلن أكون غريبا هناك .

ولي العهد : والشعب وحقوق الشعب . . هلا فكرت فيهما يوماً ما ؟ . .

الامير بول : بل . فكرت بهما كثيراً ، حتى صار ذكر الشعب وحقوق الشعب يضايقني تماماً . أن نفسي لتشمئز منهما معا . ففي أيامنا هذه ، صار مجرد كون الشخص جلفا عامياً اميّا حقيرا مدعاة شرف عظيم له ومصدر حقوق سرمدية خالدة لم يحلم بها آباؤه الافاضل من قبل . ثق يا صاحب السمو ان الديمقراطية الصحيحة هي أن يكون كل فرد فيها ارستقراطيا . أما هؤلاء الرعاع الروس الذين يريدون التخلص منا ، فكلهم أو الغالبية فيهم لا يفضلون في شيء بهيمة الحيوان التي تقتحم الحرم المقدس ولن ينفع فيهم إلا الرصاص .

ولي العهد : (ثائراً منفعلا) إذا كانوا كما تصفهم همجا رعاعا اجلافا أميين فمن الذي صيرهم إلى هذا الحال وأوصلهم إلى هذا المصير . . قل من المسؤول ؟ من هو ؟ . .

(يدخل احد مرافقي الامبراطور)

المرافق : حضرة صاحب الجلالة الامبراطورية الامبراطور (الامير بول ينظر إلى ولي العهد ويبتسم) .

(يدخل القيصر محاطا بعدد من الحراس)

ولي العهد : (يتقدم للقائه) مولاي ! .

القيصر : (بعصبية وفزع) ابتعد عني أيها الغلام . . . ابتعد عني لا تقترب مني . . فلا بد لكل ولي عهد أن يضمر السوء لابيه . ومن ذاك الرجل هناك ؟ اني لا أكاد اميزه . وماذا يفعل هنا ؟ هل هو متآمر ؟ هل فتشتموه ؟ اسجنوه إلى الغد . عذبوه ليعترف . . واشنقوه غداً . . اشنقوه .

الامير بول : سيدي انك تستبق التاريخ . هذا هو الكونت بيترشوف سفير جلالتكم الجديد إلى برلين . وهو قادم الآن ليقبل يدي جلالتكم لانعامكم عليه بهذا المنصب .

القيصر : يقبل يدي ؟ ولما ؟ هذه دسيسة . انها تمهيد لمؤآمرة ما . لعله يريد أن يدس لي السم . . حسنا فليذهب ويقبِّل يد ابني . . . فهذا يفي بالمرام .

: (الامير بول يشير للكونت بيترشوف بمغادرة المكان . يخرج الكونت وكذلك الحرس . القيصر يجلس في كرسي والحاشية واقفة صامتة) .

الامير بول : (مقتربا من الملك) مولاي ! هل ان جلالتكم . . . .

القيصر : لا . . . ولماذا تفزعني بهذه الطريقة ؟ لا . .
(يراقب الحاشية بعصبية . ثم ينهض من كرسيه)
وأنت لماذا تحمل سيفك معك .
(إلى الكونت روفالوف) انزعه حالا . فأنا لا أسمح لأحد أن يحمل سيفه في حضرتي (ينظر إلى ولي العهد) حتى ولا ولدي .
(إلى الامير بول) هل انت غاضب عليّ حقا ؟ هل تريد حقا أن تتخلى عني ؟ قل لي انك لن تتخلى . . . ماذا تريد ؟ لك كل شيء . . لك مطلق السلطة ، لك كل ما تريد .

الامير بول : (بانحناءة كبيرة) مولاي . . . يكفيني كسب ثقتكم . . !
(لنفسه) كنت اخشى أن ينتقم لنفسه مني فيمنحني وساما جديدا .

القيصر : (يعود إلى كرسيه) حسنا ايها السادة . . . فلنبدأ .

الماركيز بوفرارد: مولاي . لي الشرف أن اقدم لجلالتكم رسالة اخلاص وولاء من رعيتكم في اركانجيل يعربون فيها لجلالتكم عن فزعهم واستنكارهم للمحاولة الاخيرة لاغتيال جلالتكم . . .

الامير بول : الاصح القول المحاولة الثانية قبل الاخيرة فإن تاريخ الرسالة يعود إلى ما قبل أسبوعين .

القيصر : اهل اركانجيل اناس طيبون شرفاء ومخلصون وهم يحبونني كثيراً . . . انهم مخلصون لي حقا . ايها الامير بول . امنح مدينتهم قديسا جديدا . انه لا يكلفنا شيئاً ما . (إلى ولي العهد) حسنا يا الكسيس . كم كان عدد الخونة الذين اعدموا هذا الصباح ؟ .

ولي العهد : لقد اعدم ثلاثة رجال يا مولاي ! .

القيصر : كان يجب أن يكونوا ثلاثة آلاف . . . اني لاصلي لله تعالى أن يجعل لكل هؤلاء الناس رقبة واحدة لاقضي عليهم كلهم بجرة حبل واحد . هل تكلموا بشيء ؟ وهل وشوا بأحد ؟ هل اعترفوا ؟ .

ولي العهد : لا يا مولاي .

القيصر : اذن كان يجب أن يعذبوا أكثر. لماذا لم يعذبوا ؟ هل كتب عليَّ أن ابقى احارب في الظلام ؟ ايمكنني أن لا أعرف المصدر الذي ينبع منه هؤلاء المتآمرون المجرمون ؟ .

ولي العهد : وأي مصدر يمكن أن يكون لاستياء الرعية وسخطها غير استبداد حكامها وتعسفهم ؟! .

القيصر : ماذا تقول ؟ . . استبداد . . . استبداد . . . هل أنا مستبد ؟ . أنا لست مستبدا . أنا أحب

الشعب . . . أنا أبو الشعب . . . هكذا تدعوني كل وثائق الدولة الرسمية . . . اخرس ايها الغلام واحذر . . . الظاهر أن العلاج لم ينفع في لسانك السخيف . (يذهب إلى الامير بول ويربت على كتفه) ايها الامير بول !. خبرني هل شهد اعدام الفوضويين هذا الصباح خلق كثير ؟.

الامير بول : في الحقيقة يا مولاي . . . أن مناظر تنفيذ احكام الاعدام في روسيا قد فقدت كثيراً من جدتها وروعتها منذ أربع أو خمس سنوات . . . فأنت تعرف ما اسرع ما يزهد الناس في أحسن وسائل تسليتهم ولهوهم . . . ومع هذا فقد كان الميدان مزدحما وشرفات الدور المحيطة بالمكان مكتظة بالمتفرجين . أليس كذلك يا صاحب السمو ؟ .

(يخاطب ولي العهد الذي لا يلتفت إليه)

القيصر : هذا جميل . . . فإن كل المواطنين الصالحين يجب أن يكونوا هناك ليروا بأم اعينهم أي مصير أسود ينتظر الخونة المتآمرين . هل اوقفتم أحداً من المتفرجين ؟.

الامير بول : اجل يا مولاي ! امرأة عجوز واحدة كانت تستنزل اللعنات على جلالتكم .

ولي العهد : (مقاطعا باندفاع) ولكنها كانت اماً لاثنين من المشنوقين .

القيصر : (إلى ولي العهد) اما كان الاجدر بها أن تشكرني على اني خلصتها من اثنين من أولادها الفاسدين . ارسلوها إلى السجن حالا .

ولي العهد : أن سجون روسيا يا مولاي قد ضاقت بمن وسعت حتى لم يبق فيها مكان لمزيد من السجناء .

القيصر : انهم لا يموتون سريعا كما يجب . ضاعفوا عددهم في الزنزانات. ارهقوهم بالعمل في المناجم . فلو فعلتم بهم ما يجب لكان موتهم حتميا وسريعا . إنكم رحماء بهم وأنا شخصيا رحيم بهم كذلك . أرسلوا هذه الامرأة إلى سيبريا فإنها ستموت بالطريق حتما . (يدخل احد المرافقين) من هذا ؟ من هذا ؟ .

المرافق : رسالة إلى جلالتكم الامبراطورية .

القيصر : (إلى الامير بول) خذها وافتحها لنا أنت . أما أنا فلا أريد فتحها خشية أن تحتوي على شيء ما .

الامير بول : انها ستكون رسالة سخيفة مخيبة للآمال أن لم تحتوِ على شيء ما يا مولاي (يأخذ الرسالة ويبدأ قراءتها مبتسما) .

الامير بيتروفتش: (إلى الكونت روفالوف) انظر إليه فإن فيها انباء سيئة . فأنا أعرف معنى ابتسامته هذه جيداً .

الامير بول : انها يا مولاي من رئيس الشرطة في اركانجيل . (يقرأ) « اغتيل صباح هذا اليوم في حديقة داره الحاكم العام للمقاطعة بطلقة نارية من امرأة . وقد أُلقي القبض عليها » . .

القيصر : أنا لا أثق بأهالي اركانجيل . انها عش الفوضويين والمتآمرين .

خذ منهم قديسيهم فانهم لا يستحقون ذلك .

الامير بول : انك لتعاقبهم أشد العقاب يا مولاي لو انك اعطيتهم قديسا جديداً . . . ثلاث حكام اغتيلوا على التعاقب في مدة شهرين فقط (يبتسم لنفسه) مولاي ! اسمح لي ان اقترح تعيين خادمكم الامين المركيز دي بوافرارد حاكما عاما جديدا لمقاطعة اركانجيل .

المركيز بوافرارد: (بسرعة) مولاي اني لا اصلح لهذا المنصب أبداً .

الامير بول : انك متواضع جداً يا مركيز . . . ثق أن ليس في الروسيا كلها من يليق لهذا المنصب غيرك : (يهمس في اذن القيصر) .

القيصر : صحيح جدا ايها الامير بول . . . انك عـلى صواب دائما . اعمل على تهيئة الوثائق اللازمة لتعيين المركيز بوافرارد حاكما عاما على مقاطعة اركانجيل .

الامير بول : بمقدوره السفر هذه الليلة يا مولاي ! (إلى المركيـز) سيؤلمني غيابك حقا يا عزيزي المركيز ، فـأنا معجب جداً بذوقك في اختيار الخمور والزوجات .

المركيز بوافرارد: (إلى القيصر) اسافر الليلة يا مولاي ؟ هذا كثير يا مولاي ؟ هذا كثير يا مولاي (الامير بـول يهمس في اذن الامبراطور) .

القيصر : نعم نعم هذه الليلة يا مركيز ، فمن الخـير الاسراع بالسفر .

الامير بول : اما بشأن المركيزة فإني سأعمـل في غيابـك على طـرد الوحشة عنها ، فلا يساورك القلق عليها أبداً .

الكونت روفالوف: (للامير بيتروفتش) ينبغي على ان أكون أكثر قلقا على مصيري .

القيصر : لقد اغتيل حاكم اركانجيل في حديقة داره ومن قبل امرأة . . . اذن فأنـا غير آمن عـلى حياتي هنـا ، غير آمن على حياتي في كل مكان ما دامت شريـرة الثورة فيرا سابوروف ، موجودة في هذه المدينة .

ايها الامير بول . أما زالت هذه المرأة في موسكو ؟ .

الامير بول : علمت يا مولاي انها كانت في حفلة الاستقبال مساء أمس ، على اني اشك في هذا الخبر كثيراً . ولكن المؤكد انها كانت تنوي السفر إلى نوفوكراد هذا اليوم وقد اوعزت للبوليس بالبحث والتفتيش عنها في كل قطار ولكنها لسبب ما قد عدلت عن سفرتها . لا بد أن احد الخونة قد انذرها وحذرها . وعلى كل فإني سأقبض عليها حتما فمطاردة امرأة حسناء أمر مثير حقا .

القيصر : يجب ان تشتد في مراقبتها حتى تقع في يدي ، وحينذاك فإني سأبري ضلوعها ضلعا ضلعا وأمزق جسمها اربا اربا حتى لا ابقي لها اثراً .

الامير بول : سنبدأ حالا حملة أكبر لمطاردتها من جديد . يا مولاي .
واعتقد أن الامير الكسيس سيساعدنا في هذا السبيل .

ولي العهد : لست ايها الامير بول ممن يحتاجون إلى عون في تحطيم النساء .

القيصر : فيرا الفوضوية في موسكو !! رباه . . . أليس الافضل لي أن أموت ميتة الكلاب التي يريدونها لي من أن أعيش كما أعيش الآن ارقا مسهدا محروما من النوم طول الليل أو نهبا لاحلام مفزعة مرعبة لا

تقاس إلى عذابها نيران الجحيم ، غير واثق من احد إلا الذين اشتريهم بـالمال ، وغيـر قادر أن اشتـري بالمال إلا الذين لا يوثق بهم . اتوسم الخيانـة في كل ابتسـامـة ، والغـدر في كـل وجـه ، والسم في كـل صحن ، والخنجر في كل يد . أقضي الليالي الطوال سهـران يقظاً متـوقعا بـين لحظة وأخـرى أن أسـمـع خـطى القاتـل وهو يـزحف نحوي خلسـة في جنـح الـظلام ليضـع لغـما أو يفجـر قنبلة . انكم كلكم جـواسيس . كلكم جـواسيس ، وأنت أنت شـرهم جميعا أنت ولدي ومن صلبي . . .

من منكم الـذي وضـع المنشـورات الارهـابيـة تحت مخـدتي وعلى المنضـدة التي اجلس إليهـا . من منكم جميعا هو يهودا الخائن ؟ .

رباه . . ! اني لأتـذَكـر زمانـا كنت فيه في شبـابي ولم يكن الخوف يعـرف إلى قلبي سبيـلا أبداً . . . أبـداً (يتكلم بهدوء أكثر وبعظمة) اذكر اثناء حـربنا مـع الانكليــز كيف اقتحمت قلب المعـركـة الـداميـة لاسترجع رايتنـا التي كان سكـان الجزيـرة الاجلاف قد نهبوها منا . . . لقد اعترف لي رجالي بالشجـاعة والجـرأة . وقـلدني والـدي وسـام الـشـجـاعـة الحديدية . . . آه . . . ليته يراني اليوم هلعا شاحب

الوجنتين مرتعد الاطراف ليرى أي جبان قد صار ولده اليوم . . . (يجلس على كرسيه) لم اعرف أي نوع من الحب في صغري . لقد نشأت محكوما بالرعب ، فبأي شيء غير الرعب ، يريدونني أن أحكم الآن ؟ . (يتوقف ثانية) لكنني سأنتقم وسأثأر لنفسي منهم . . . سأثأر منهم لكل ساعة من هذه الساعات بأعوام من النفي في سيبيريا أو بقرون من العمل في المناجم . . . نعم . . . سأنتقم .

ولي العهد : ابتاه . . . فلتأخذك الرحمة برعيتك المساكين وامنحهم ما يريدون .

الامير بول : وابدأ برأسك يا مولاي فإنه أول ما يريدون ولهم به ولع خاص .

القيصر : الشعب . . . الشعب . . . هذا النمر الهائج الذي اطلقته من عقاله فإذا به ينطلق ضدي . . . لكني سأقف في وجهه في حرب حياة أو ممات . . م يعد لانصاف الحلول مكان عندي . . سأسحق هؤلاء الفوضويين مرة واحدة . . . لن ادع في الروسيا كلها امرأة أو رجلا منهم حيا يستنشق الهواء . . . أي امبراطور أنا . . . إذا ما استطاعت فتاة ان تبعث الرعب في قلبي . . . هذه الفتاة . . . فيرا

سابوروف . . . انني اقسم انها يجب أن تكون في قبضتي قبل نهاية هذا الاسبوع وعند ذاك سوف تجلد بالسياط ثم تشنق أمام الجماهير . . .

ولي العهد : رباه . . !

القيصر : منذ سنتين ويداها آخذتان بخناقي . . . ولكن آن لي أن أثأر منها . سأثأر وسيكون ثأري رهيبا . . . انه الاحكام العرفية . . ايها الامير بول . اعلنوا الاحكام العرفية في كافة أنحاء الامبراطورية . . . هذا هو انتقامي . . . اجراء سديد ايها الامير بول . . . أليس كذلك ؟ .

الامير بول : اجراء سديد واقتصادي أيضا يا مولاي ! فإنه سيقضي على فائض السكان في روسيا بأقل من ستة أشهر ، ويوفر لنا نفقات المحاكم الجنائية . . فإننا لن نحتاجها بعد الآن .

القيصر : هذا صحيح . فإن السكان في روسيا يتكاثرون بسرعة كبيرة . وهم يحتاجون منا إلى نفقات كثيرة . وكذلك المحاكم الجنائية . . . فإنها تحتاج نفقات كثيرة أيضاً . . سوف اغلقها بعد اليوم .

ولي العهد : مولاي فكر قبل . . .

القيصر : ايها الامير بول . . . متى يتم طبع واعداد الوثائق اللازمة .

الامير بول : لقد طبعتها واعددتها منذ ستة أشهر يا مولاي فقد كنت اعلم انكم تحتاجونها يوما ما .

القيصر : بارك الله فيك . . . فلنبدأ بها الآن اذن . لو كان لكل ملك في اوروبا وزير مثلك ايها الامير بول . . .

ولي العهد : (هامسا للامير بول) ماذا يعني بقوله هذا ؟ هل تثق فيه أنت ؟ ان حبسه لم ينفعه شيئاً على ما يظهر . . . هل ترى نفعا في ابعاده . . . (يهمس) لقد فعل مثل هذا الامبراطور بول . . . وكذلك الامبراطورة كاثرين (يشير إلى صورتها على الحائط) فعلت ذلك أيضاً . . . فلم لا أفعل مثلهما أنا أيضاً ؟ . . .

الامير بول : لا داعي للهلع يا مولاي ! فالامير شاب ذو وجدان يقظ وطبع مستقيم . انه يدعي محبة الشعب . ويعيش في قصر ملكي ، يدعو للاشتراكية ويقبض راتبا يكفي لانعاش مملكة . . . اما نزعته الجمهورية فشفاؤها التاج الامبراطوري حين يوضع على رأسه . وآنذاك فإنه سيمزق راية الحرية الحمراء ليصنع منها اشرطة لاوسمة رئيس وزرائه .

القيصر : هذا صحيح . . لو انه يحب الشعب حقا لما كان من صلبي أبداً . .

الامير بول : لو قدر لـه ان يعاشر الـرعاع ويختلط بهم تمـاما مـدة أسبـوعـين فقط فـأنـا واثق من أن طبـاعهم الخشنـة وطعـامهم الغليظ كفيـلان بشفـائـه من ديمقـراطيتـه هذه . . . هل نبدأ العمل يا مولاي .

القيصر : حـالا . . . وعـلى الفـور . . . اقـرأ المـراسيم . . . اجلسـوا ايها السـادة . . . الكـسيس الكسيس تعـال واسمع . فهو تمرين نافع لك سوف تضطر إليه يوما ما .

ولي العهد : لقد سمعت عنه من قبل ما يكفي . . (يجلس عـلى كرسيه حـول المائـدة . الكونت روفـالوف يهمس في اذنه) .

القيصر : ما هذا الهمس يا كونت روفالوف ؟ .

الكونت روفالوف : سيدي كنت اسدي نصيحة إلى صاحب السمو .

الامير بول : ان الكونت روفالوف يا مولاي مثال الرجل المسـرف المتلاف الذي يهب للغير دوما ما هو في اشد الحاجـة إلـيـه . (يضـع الاوراق عـلى المـنـضـدة أمـام الامبراطور) اظنكم توافقون يا مولاي عـلى الصيغة التـاليـة : صـالـح الشعب . . . الاب الحنـون لشعبه . . . الاحكام العرفية . . ثم التنويه بالعنايـة الالهيـة في السطر الاخـير . انها لا تحتاج إلا تـوقيـع جلالتكم .

ولي العهد : مولاي !.

الامير بول : (باستعجال) اني اعد جلالتكم بالقضاء التام على كل الفوضويين في جميع أنحاء الروسيا في مدة ستة أشهر فقط إذا ما تفضلتم بتوقيع هذا المرسوم . . . القضاء التام على كل الفوضويين .

القيصر : قلها ثانية . قلها ثانية . . . القضاء التام على كل الفوضويين في الروسيا . . . القضاء على هذه الشريرة رئيستهم التي اعلنتها عليَّ حربا شعواء داخل عاصمتي . ايها الامير بول مارالوفسكي . . . لمساعدتكم في تنفيذ الاحكام العرفية فقد عينتكم مارشالا عاما على جميع الامبراطورية الروسية . اعطني المراسيم لأوقعها في الحال . . .

الامير بول : (مشيراً إلى الاوراق على المنضدة) هذه هي يا مولاي :

ولي العهد : (ينهض من مكانه ويضع يده على الاوراق) رويدا . . . رويدا يا ابتِ . . . لقد سلب الرهبان مملكة السماء من الناس وتريدون ان تسلبوهم مملكة الارض أيضاً .

الامير بول : (باستعجال) الوقت ضيق الآن ايها الامير . ان هذا الغلام يريد أن يهدم كل شيء . . . هاكم القلم يا مولاي .

ولي العهد : ماذا . . ؟ أبهذه السهولة تقررون القضاء التام على شعب بأسره وافناء مملكة بكاملها وتحطيم امبراطورية واسعة ؟من نحن لنفرض هذا الارهاب على الناس ؟ أنحن أقل ذنوبا منهم فنحاسبهم على ذنوبهم ؟ .

الامير بول : يا لسمو الامير من شيوعي ممتاز . . . انه يريد توزيع الذنوب بين الناس مثل توزيع الملكيات .

ولي العهد : ألسنا جميعا من دم ولحم واحد نعيش تحت شمس واحدة ونستنشق هواء واحدا ؟ فأي فرق بيننا وبينهم سوى انهم يشكون المسغبة ونشكو التخمة ، ويرهقهم العمل ويضجرنا الفراغ ، وهم يمرضون ونحن نفسد ونتفسخ ، وهم يموتون ونحن . . .

القيصر : كيف تجرؤ على هذا الكلام ؟ .

ولي العهد : اني أجرؤ على هذا من أجل الشعب ، لانكم تريدون أن تسلبوه أبسط حقوقه .

القيصر : الشعب لا حقوق له .

ولي العهد : اذن فهم مخطئون . اتظن ذلك يا ابتِ . اذكر يا ابي انهم هم الذين كسبوا لك كل حروبك ونشروا لك رايات الظفر والمجد من اقاصي غابات الصنوبر في البلطيق إلى ابعد بساتين النخيل في الهند . . . وأنا

على صغر سني قد شاهدت أفواجا بعد أفواج من هذه الجموع البشرية تقتحم الموت في سوح القتال ببطولة وفخار لتنتزع لك بأرواحها ودمائها النصر انتزاعاً بعد ما يكاد أن يدبر عنا ، وترد الاهلة فوق نسورنا المدماة عالية خفاقة بعد أن توشك ان تميل وتنهار . . .

القيصر : (وقد اثر فيه الكلام قليلا) لكن هؤلاء قد ماتوا . فما عسى أن أصنع لهم الآن ؟ .

ولي العهد : لا شيء . . . انهم أموات . . . والاموات هم وحدهم الآمنون الذين لا تقدر على ايذائهم بعد الآن . لقد ناموا نومتهم الأبدية على ضفاف البحار التركية أو في اعالي الجبال الموحشة في النرويج والدانيمارك . . . ولكن اخواننا الاحياء منهم . ماذا عملت لهم ؟ أي خير قدمته لهم ؟ انهم يطالبونك بالخبز فترميهم بالحجارة ، ويسألونك الحرية والانعتاق فتسلط عليهم سوط العذاب . . . فأنت نفسك الذي بذرت بذور الثورة !! .

الامير بول : ولهذا فإننا سنتولى الحصاد .

ولي العهد : ايه ايها الاخوة : لقد كان الافضل أن تستشهدوا في سوح القتال تحت قصف الحديد وقذف المدافع من أن تعودوا إلى حياة بائسة مثل حياتكم . حتى

الوحوش في الغاب أو الحيوان في الفلاة لها كهوفها وجحورها التي تأوي إليها وتسكن فيها ، أما ابناء روسيا ، الفاتحون المغاوير فليس لهم ما يريحون رأسهم عليه .

الامير بول : عندهم خشبة الجلاد . . .

ولي العهد : خشبة الجلاد . أي نعم ، لقد حطمت نفوسهم والآن تريد أن تزهق أرواحهم .

القيصر : ايها الولد الوقح . . . انسيت من هو الامبراطور في روسيا ؟ .

ولي العهد : كلا لم انس . . . انه الشعب ، الشعب هو الذي يحكم الآن باسم الله . . . كان ينبغي أن تكون الراعي لهم والذائد عنهم ، لا أن تتوارى وتبتعد عنهم فتتناهبهم الذئاب .

القيصر : ابعدوه عني . ابعده عني ايها الامير بول .

ولي العهد : لقد خلق الله الالسنة للبشر ليتكلموا بها ولكنك تريد قطعها ليبقى الناس بكما لا يتكلمون . يتحملون عذابهم صابرين صامتين ويجترون آلامهم خرسا لا يبينون . أن الله خلق للناس اذرعا ليضربوا بها . وسيضربون ويبطشون . نعم فلا بد للارحام السقيمة المتعبة في هذه الارض التعسة من

أن تضع حملها يوما ما، وليدا دمويا أحمر هو الثورة الحمراء التي ستقضي عليكم فلا تبق ولا تذر .

القيصر : (قافزا من كرسيه) ايها الشرير. ايها المجرم كيف تجرؤ على توجيه هذا القول اليّ . . .

ولي العهد : ذلك لأنني فوضوي .

(الوزراء ينهضون من مقاعدهم مدهوشين . صمت تام يسود الحاضرين لبضع دقائق) .

القيصر : فوضوي . . . فوضوي . . . ايها الثعبان اللئيم والخائن الذي ربيته بأحضاني . أهذا هو اذن سرك الدموي . ايها الامير بول مارالوفسكي مارشال الامبراطورية الروسية . آمرك باعتقال ولي العهد .

الوزراء : اعتقال ولي العهد !؟

القيصر : فوضوي . . . فوضوي . . . ما دمت معهم تزرع فمعهم يجب أن تحصد ، وما دمت معهم تتكلم فمعهم يجب أن تصمت ، وما دمت معهم تحيا وتعيش فمعهم يجب أن تموت وتقبر .

الامير بيتروفتش: تموت وتقبر !! .

القيصر : الموت لاولادي جميعا . . . الموت للاولاد جميعا ، سوف امنع الزواج في روسيا بعد الآن لأمنع انجاب

الافاعي من امثالك . . ايها الامير بول اعتقل ولي العهد . قلت اعتقل ولي العهد .

الامير بول : صاحب السمو ولي العهد ! بأمر حضرة صاحب الجلالة الامبراطورية الامبراطور أطلب تسليمي سيفك .

(ولي العهد ينزع سيفه ويسلمه للامير بول الذي يضعه فوق المنضدة) .

ولي العهد : سوف تجده نظيفا غير ملوث بالدماء ايها الامير .

الامير بول : ايها الصبي الغر . . . انك لا تصلح للتآمر لانك لم تتعلم فضيلة ضبط اللسان بعد . فالبطولات لا مكان لها في قصور الملوك .

القيصر : (يجلس على كرسيه وقد ركز نظراته على ولي العهد) رباه !! ابني ابني من صلبي ومن لحمي ودمي يقف ضدي !! لا ولكنني اتبرأ منهم جميعا الآن .

ولي العهد : ان الفئة العظيمة التي أنا منها ، لها الالوف بل عشرات الالوف من امثالي . . . لقد اشرقت شمس الحرية فعلا واني لاسمع من بعيد أمواج الديمقراطية تقبل متلاطمة نحو هذه الضفاف اللعينة .

الامير بول : (إلى الامير بيتروفتش) اذن فعلينا أن نتعلم العوم .

ولي العهد : أبتي ، سيدي ، ملكي ، امبراطوري ، اني لا استعطفك على حياتي أنا ولكن على حياة اخواني من ابناء الشعب .

الامير بول : (بمرارة) ان اخوانك ابناء الشعب ايها الامير ، غير قانعين بحياتهم ، وانما يريدون حياة جيرانهم أيضاً .

القيصر : (واقفا) لقد حطمني الخوف والفزع . ولكن هذه نهايتها . فمنذ هذه الليلة سأعلنها على ابناء الشعب حرب ابادة وفناء . وسأعاملهم كما يريدون أن يعاملوني . سأطحن عظامهم طحنا واذروها في الهواء ترابا . سأنصب في كل بيت جاسوسا وفي كل دار خائنا وفي كل قرية جلاداً وفي كل شارع مقصلة . سيكون الطاعون الاسود والسل المميت أخف عليهم من حقدي ونقمتي . سأجعل في كل بيت مأتما وفي كل مكان مقبرة وفي كل مقاطعة سجنا . سأشفيهم بسيفي حتى يسود السلم ويعم الهدوء في كل روسيا وإن يكن هدوء الموتى . من قال اني جبان أو خائف ؟ انظروا سأسحقهم بقدمي .

(يأخذ سيف ولي العهد من المنضدة ويدوسه بقدمه)

ولي العهد : ابتاه تمهل فإن السيف الذي تدوسه الآن قد يرقد عليك فيدميك . . . ان عذاب الناس كان شديداً وان صبر الناس كان طويلا . لكن كل شيء قد بلغ حده . والآن جاء دور الانتقام . . . الانتقام يأتيكم بأيد مخضبة بالدماء وبخطى لا تسمع .

الامير بول : ان الرعاع لا يحسنون الرماية وهم يخطئون الهدف دائما .

ولي العهد : ولكن يد الشعب في بعض الاحيان تكون هي يد الله .

القيصر : نعم ، والملوك نقمة الله على الشعب . اذهبوا به . اين الحرس ؟ . (يدخل الحرس الامبراطوري . القيصر مشيراً إلى ولي العهد الذي يقف وحده في طرف المسرح) سنأخذه إلى السجن بأنفسنا . السجن ؟ لكنني لا أثق بأي من السجون . فقد يهرب ويقتلني . الأحسن أن يموت الآن . أن يأخذه الجنود إلى هذه الساحة ليرموه بالرصاص . لا أريد أن أرى وجهه ثانية . (الجنود يقودون ولي العهد) . لا . لا . لا . دعوه . أنا لا ائتمن الحراس . كلهم فوضويون. (إلى الامير بول) أنا أثق بك . انك لا تعرف الرحمة . (القيصر يفتح النافذة ويخرج إلى الشرفة) .

ولي العهد : اني على استعداد للموت في سبيل الشعب . وزيادة فوضوي واحد أو نقصانه لا تهم كثيراً .

الامير بول : (ينظر إلى ساعته) لقد فاتت عليّ ساعة العشاء . ما اتعب السياسة والاولاد الورثاء .

صوت من الشارع : النصر للشعب! (يسمع صوت طلقة نارية . الطلقة تصيب القيصر فيرجع متعثراً إلى الغرفة) .

ولي العهد : (يفلت من الحراس ويندفع نحو القيصر) ابي !! .

القيصر : ايها القاتل . . . ايها المجرم . . . لقد فعلتها ايها المجرم . . . (يموت) .

الستار

الفصل الثالث

المنظر : ـ منظر الفصل الأول عينه . الرجل ذو الرداء الاصفر يحرس الباب شاهرا سيفه .

كلمة السر : (من الخارج) الويل للمستبدين .

الجواب : الويل للمغلوب (تكرر ثلاث مرات) .

(يدخل المتآمرون متنكرين ويجلسون على هيئة نصف دائرة)

الرئيس : في اية ساعة نحن ؟ .

المتآمر الأول : ساعة البطش .

الرئيس : في أي يوم ؟ .

المتآمر الثاني : يوم مارات .

الرئيس : في أي شهر ؟

المتآمر الثالث : شهر الحرية .

الرئيس : ما هو واجبنا ؟ .

المتآمر الرابع : الطاعة .

الرئيس : ما هي عقيدتنا ؟ .

المتآمر الخامس : ان اردت الحق ايها السيد الرئيس فإني ما عرفت لكم عقيدة قط .

المتآمرون : جاسوس . . . جاسوس . . . ارفع القناع . جاسوس .

الرئيس : احكموا غلق الابواب . فبيننا شخص غريب .

المتآمرون : ارفع القناع . جاسوس . اقتلوه . اقتلوه . . . اقتلوه .

(يرفع قناعه . الجميع بصوت واحد وبدهشة بالغة) الامير بول ؟!

فيرا : ايها الشرير . . . مالذي اغراك بالدخول إلى عرين الاسود .

المتآمرون : اقتلوه . . . اقتلوه . . .

الامير بول : الواقع ايها السادة أن تحيتكم هذه لا تدل كثيراً على كلام الضيافة .

فيرا : تحية !! واية تحية تستحق منا غير الحبل أو السكين .

الامير بول : في الواقع اني لم اكن لاتصور أن الفوضويين على هذه الدرجة من الانكماش على نفوسهم والنفرة من الغير . ولكن دعوني اؤكد لكم أيها السادة بأنني لولا اعتيادي على الولوج إلى أرقى المجتمعات وإلى اسوأ المؤامرات على حد سواء لما بقيت رئيسا للوزارة في روسيا كل هذا الأمد الطويل .

فيرا : النمر لا يترك طبيعة الافتراس ولا الثعبان نفث السموم . فماذا حدث ؟ هل انقلبت فجأة إلى محب للشعب .

الامير بول : رباه .. الا هذا .. أنا ؟ كلا ايتها الآنسة فإني لافضل ألف مرة أن أخوض في أحاديث الفضائح العائلية في صالونات الاستقبال على أن أبحث المؤامرات في الاقبية والسراديب . اضافة إلى هذا فإني أكره الغوغاء الذين تنتشر منهم رائحة الثوم ، ولا يدخنون إلا اسوأ التبوغ ، والذين ينهضون من فراشهم مبكرين ولا يأكلون في العشاء إلا صنفاً واحداً فقط .

الرئيس : فما نفعك من الثورة اذن ؟ .

الامير بول : يا صديقي العزيز ... لم يبق عندي ما افقده فيها . فإن هذا الغلام المعتوه ، قيصرنا الجديد قد امر بإبعادي .

فيرا : إلى سيبيريا ؟ .

الامير بول : كلا ، إلى باريس . لقد صادر أملاكي وسلبني منصبي وطباخي ولم يبق لي الا اوسمتي ... لذا جئت إلى هنا للانتقام .

الرئيس : اذن فمن حقك أن تكون واحداً منا . فنحن لا نجتمع هنا كل يوم إلا للانتقام .

الامير بول : وانتم في حاجة للمال طبعا ، فالذين يملكون منه شيئاً لا يشتركون عادة في أعمال التآمر . إليكم هذا (ينثر على المنضدة كيسا من النقود الذهبية) ثم أرى انكم حريصون جدا على جمع المعلومات ، تدلني على ذلك كثرة جواسيسكم وعملائكم ، اذن فدونكم أنا . اعرف رجل في الروسيا كلها بأعمال الحكومة واخطائها . . . وكلها تقريبا من صنع يدي .

فيرا : ايها الرئيس . انني لا اثق بهذا الرجل فقد اذاقنا شر أنواع الاذى ، فيجب أن لا يخرج سالما من هنا .

الامير بول : أرجو أن تثقي يا آنستي العزيزة بأنك مخطئة في هذا . فسأكون إضافة نافعة إلى زمرتكم هذه . . . وانتم ايها السادة لو لم أعتقد بفائدتي لكم ، لما كنت أجازف برأسي بالمثول بينكم، وأقدم موعد عشائي ساعة كاملة عن موعده المعتاد لاحضر اجتماعكم هذا في الوقت المعين ؟ .

الرئيس : لو انه يريد التجسس علينا ، يا فيرا ، لما جاء إلينا هو بنفسه .

الامير بول : (لنفسه) على العكس ، لكنت ارسلت اليكم اعز اصدقائي .

الرئيس : وبالاضافة إلى ذلك يا فيرا ، فإنه الرجل المطلوب لامدادنا ببعض المعلومات الضرورية عن المهمة التي بين ايدينا هذه الليلة .

فيرا : فليكن ما تريدون .

الرئيس : ايها الرفاق . هل توافقون على قبول الامير بول ماراليوفسكي عضوا معنا ، وتحليفه يمين الفوضويين .

المتآمرون : نعم ! نعم ! .

الرئيس : (يمسك بيده خنجراً وورقة) الامير بول : الخنجر أو الورقة ؟ .

الامير بول : (يبتسم بسخرية) أن رغبتي أن أقتل لا أن أُقتل . (يأخذ الورقة) .

الرئيس : تذكر انك إذا ما وشيت بنا فلن تفلت من عقابنا قط ما دام على وجه الارض سم أو حديد . وما دامت في الرجال قدرة على الطعن وفي النساء قدرة على الغدر والكيد . فالفوضويون لا ينسون أبداً أصدقاءهم ولا يغفرون أبداً لاعدائهم .

الامير بول : أهو كذلك حقا ؟ ما كنت لادري انكم على هذه الدرجة من حسن الادب .

فيرا : (تتمشى جيئة ورواحا في مؤخرة المسرح) لماذا لم يحضر بعد .

انه سوف يرفض التاج فأنا أعرفه جيداً .

الرئيس : وقع (الامير بول يوقع) لقد ذكرت اول الامر أنه لا عقيدة لنا . ولكنك مخطىء في هذا . اقرأ فهذه عقيدتنا .

فيرا : هذا أمر جد خطير . ما نفع هذا الرجل لنا ؟ .

الرئيس : نستطيع الاستفادة منه في عملنا هذه الليلة وفي الغد .

فيرا : قد لا يكون لنا غد . . . على كل فقد اعطيناه الامان وانه لاكثر امانا على نفسه في هذا المكان منه في قصره .

الامير بول : (يقرأ) « حقوق الانسان »(يرفع رأسه عن الورقة) كان الانسان في السابق يصنع حقوقه بنفسه ولكن الظاهر في هذه الايام أن كل طفل يولد وفي فمه وثيقة حقوق أكبر منه . (يعاود القراءة) « الحياة ليست معبدا وانما هي معمل . اننا نطلب الحق في العمل » بالنسبة لي فإني اتنازل مقدما عن حقي في هذا الخصوص .

فيرا : (ما زالت تتمشى) احقا انه لا يأتي هذه الليلة . . ؟ . احقا انه لا يأتي ؟! .

الامير بول : (مستمـرا بالقـراءة) « امـا العـائلة فيجب القضـاء عليها لكونها نظاما رجعيا هدّاما للوحدة الاشتـراكية التعاونية » . نعم ايها الرئيس أنا اتفق تماما وما جـاء بالفقرة الخامسة . فـالعائلة عبء بغيض وخصـوصا على غير المتـزوجين . (تسمـع ثلاث طـرقات عـلى الباب) .

فيرا : وأخيراً هذا هو الكسيس قد جاء .

كلمة السر : الويل للمستبدين .

الجواب : الويل للمغلوب (يدخل مايكل ستروكانوف) .

الرئيس : اهـلا بمايكـل مبيد الملوك . . . ايهـا الرفـاق فلنحيّ رفيقا لنا قتل ملكا .

فيرا : (لنفسها) لاشك انه سيحضر بعد قليل .

الرئيس : مايكل! لقد انقذت روسيا .

مايكل : نعم . لقد تحررت روسيا لحظة واحدة فقط ، لحظة سقط الامبراطور على الارض مضرجـا بدمـائه لكن شمس الحـرية مـا عتمت أن غـابت ثـانيـة كالفجـر الكاذب الذي يخدع العين ايام الخريف في روسيا .

الرئيس : ان ليل الاستبداد المرير في روسيا لما ينته بعد .

مايكل : (يلوح بخنجره) طعنة واحدة أخرى وتحـل النهايـة الموعودة .

فيرا : (لنفسها) طعنة اخرى . ماذا يعني ؟ أواه ! هذا مستحيل . لكن لماذا لم يحضر إلينا هذه الليلة . الكسيس . . . الكسيس لم لمْ تحضر ؟ .

الرئيس : كيف هربت يا مايكل ؟ فقد اشيع انهم القوا القبض عليك .

مايكل : لقد ارتديت ملابس الحرس الامبراطوري ، وكان الضابط الموكل بالحراسة من رفاقنا فأعطاني كلمة السر التي سهلت عليّ المرور بين الجنود بأمان . ثم الفضل لجوادي الاصيل الذي اوصلني إلى خارج السور قبل سد البوابات .

الرئيس : لقد كان خروجه إلى الشرفة مصادفة عجيبة .

مايكل : مصادفة؟ لا ليس هناك أي شيء اسمه مصادفة انها يد الله قادته إليها .

الرئيس : واين قضيت هذه الايام الثلاثة .

مايكل : مختفيا عند القس نيكولاس عند منعطف الطريق .

الرئيس : الاب نيكولاس رجل شريف حقا .

مايكل : نعم له من الشرف ما يكفي قسيسا مثله . والآن فإني هنا لتدبير الانتقام من خائن .

فيرا : (لنفسها) الهي . متى يحضر؟ الكسيس لماذا لم تحضر ؟ انك لا يمكن ان تنقلب خائنا .

مايكل : (يرى الامير بول) يا للقديس جورج !! الامير بول مارالوفسكي هنا . يا له من صيد عظيم حقا . انه من عميل فيرا ولاشك فهي الوحيدة من بيننا التي تستطيع أن تغري مثل هذا الثعلبان بالوقوع في الفخ .

الرئيس : لقد اقسم الامير بول اليمين معنا لتوه .

فيرا : لقد ابعده الكسيس القيصر من روسيا .

مايكل : خدعة للتغرير بنا . يجب أن نحتفظ بالامير في هذا المكان وسنجد له عملا مناسبا في خطتنا الارهابية . فإنه الآن - ولا شك - قد أصبح خبيراً بسفك الدماء .

الامير بول : (متقربا من مايكل) لقد كانت رميتك سديدة وصائبة رغم بعدالمسافة يا رفيقي العزيز .

مايكل : لقد مارست الرماية منذ صغري ، أيام كنت أصيد الخنازير البرية في مزرعة سموكم .

الامير بول : واين كان حراسي عنك ؟ احقا انهم كحيوانات الخلد يقضون العمر نياما ؟ .

مايكل : كلا ايها الامير . فأنا نفسي واحد منهم . ولكن مثلك مولع بنهب ما اؤتمن عليه .

الرئيس : لا بد انك تشعر بالغرابة في هذا المحيط ، ايها الامير ، فهو محيط جديد عليك . اننا نجبه بعضنا البعض بالحقيقة دائما .

الامير بول : لا بد وانكم اكتشفتم ضلالها . فأنتم ، على ما أرى ، خليط من الناس غريب .

الرئيس : اسمح لي أن أقول ان أمامك جمعا من الاصدقاء الطيبين .

الامير بول : قد يكون ذلك . فللارستقراطيين ادمغة من نحاس .

الرئيس : ولكنك ها انت هنا ترى بنفسك .

الامير بول : أنا ؟ ما دمت لا أستطيع أن أكون رئيسا للوزارة . فيجب أن أكون فوضويا . ولا بديل لي عن هذين .

فيرا : الهي . . . أحقا انه لن يحضر ؟ لقد اوشكت عقارب الساعة أن تدق موعد اللقاء . . . أحقا انه لن يأتي .

مايكل : ايها الرئيس . أتعرف ما يجب علينا عمله ؟ انه لصياد ضائع ذلك الذي يقتل الذئب ويترك فرخه حيا ليثأر لابيه . لكن كيف السبيل إلى هذا الغلام ؟ يجب أن يتم عملنا هذه الليلة . فغدا

سوف يضع أمام الشعب بعض فتات الاصلاح ، فيكون بعدها قيام الجمهورية بعيد المنال .

الامير بول : أنت مصيب كل الاصابة . فالملوك الشعبيون هم أخطر أعداء الديمقراطية الحديثة . وثقوا انه ما دام قد بدأ أعماله بطردي فإنه يعتزم أن يكون ملكاً شعبياً مخلصاً .

مايكل : انني امقت الملوك الوطنيين . ان ما تريده روسيا هو الجمهورية .

الامير بول : ايها السادة . لقد جلبت لكم اليوم وثيقتين هامتين . الأولى هي البيان الذي اعتزم هذا الامبراطور الصغير نشره غدا . والثانية هي مخطط القصر الملكي الشتائي حيث سينام ليلته هذه فيه . (يسلم الاوراق إلى الرئيس) .

فيرا : اني لا اجسر على سؤالهم عما ينوون عمله هذه الليلة . ولكن لِمَ لَمْ يأت الكسيس ؟ .

الرئيس : ايها الامير . هذه معلومات قيمة جدا . وأنت جد مصيب يا مايكل . فإنها أن لم تتم الليلة يفت أوانها . هاك اقرأ .

مايكل : آه . . . رغيف من الخبز يلوح به للشعب الجائع . كذبة قذرة لخداع الشعب (يمزق الورقة) يجب أن

تكـون الليلة . انني لا أثق به أبـداً . فلو كان يحب شعبه حقا لما احتفظ بتاجـه حتى الآن . ولكن كيف يمكن الوصول إليه ؟ وهل كتب علينـا ، نحن الذين قاومنا سهام الوالد أن نتحمل سيـاط الابن ؟ لا انما يجب القضـاء عليه مهـما يكن الامر . . . مهـما يكن الامر ، فهو على ضلال .

الامير بول : هــذه مفـاتيــح البـاب الخــارجي الخـاص (يسلم المفاتيح) .

الرئيس : اننا مدينون لك بالكثير أيها الامير .

الامير بول : (بابتسام) الوضع الطبيعي للفوضويين .

مايكل : نعم ، لكننـا الآن نسـدد ديوننـا مـع الفـائــدة . امبـراطوران في اسبـوع واحـد . ان هـذا سيسـوي الحسـاب . وكنا ننـوي أن نلحق بهما رئيس الـوزارة أيضاً لو لم تأت إلى هنا .

الامير بول : آه يؤسفني أن اسمـع هذا . انـه يجـرد زيـارتي هـذه اليكم من كل رونق أو مجازفة . كنت أظن أن مجيئي إلى هنا سيعرض رأسي للخطر فإذا بكم تقولون انـه انقـذه . ان المرء ليتعـرض لخيبة الامـل حتماً إذا مـا أراد أن يكون خيالياً في هذه الحياة الحديثة .

مايكل : وهـل من الخيال في شيء أن يفقـد المـرء رأسـه ايهـا الامير ؟ .

الامير بول : طبعا لا . . . ولكن الانسان قد يحس احيانـا أن من الحمـاقة أن يحـافظ على رأسـه . وأنت الا يتملكك هذا الشعور احيانا ؟ (الساعة تدق السادسة) .

فيرا : (ترتمي على كـرسي) آه . لقد دقت السـاعة وفـات الأوان .

مايكل : (للرئيس) تذكر أن الاوان سيفوت علينا في الغد .

الرئيس : ايها الرفاق : لقد حل الموعد فمن منا لم يحضر ؟ .

المتآمرون : الكسيس الكسيس .

الرئيس : اقرأ يا مايكل القاعدة السابعة .

مايكل : (يقـرأ) « وإذا ما تخلف احـد الـرفـاق عن حضـور أحـد الاجتماعات فعلى الرئيس أن يحقق عما يوجد ضد العضو الغائب من أمور » .

الرئيس : ايها الرفاق : هل تجدون شيئا ضد الكسيس .

المتآمرون : نعم لقد لبس التاج .

الرئيس : مايكل . اقرأ المادة السابعة من دستور الثورة .

مايكل : (يقرأ) « تستمر الحرب بلا هوادة ولا انقطاع وحتى الموت بين الفوضويين وأصحاب التيجان » .

الرئيس : ايهـا الـرفـاق . مـا الذي تقـولـون الآن . هـل ان الكسيس القيصر مذنب أم بريء .؟ .

الجميع : مذنب .

الرئيس : وما عقابه ؟ .

الجميع : الموت ! .

الرئيس : انه سيكون الليلة . فلنسحب القرعة .

الامير بول : انه لامر ممتع حقا . فقد كنت أحسب أن أعمال التآمر تمشي كأعمال الحكومة بطيئة مملة .

البروفسور مارفا: اني وان تكن براعتي في تدبيج المقالات أكثر منها في اطلاق الرصاص ولكن لا بأس عليّ من سحب القرعة معكم فإن لقتلة الملوك مكانا في التاريخ .

مايكل : إذا كان مسدسك مثل قلمك غير ذي اذى فإن هذا الطاغية سينعم بعمر طويل .

الامير بول : وعليك أن تذكر أيضاً يا استاذ أنه إذا ما القى القبض عليك وهذا امر محتمل جدا . وإذا ما نفذ فيك حكم الاعدام وهو أمر مؤكد جداً ، فلن يبقى آنذاك من يقرأ مقالاتك بعدك .

الرئيس : هل أنتم حاضرون أيها الرفاق ؟ .

فيرا : (تنهض من كرسيها) لا . ليس الآن ايها الرئيس فعندي كلمة اليكم .

مايكل : (لنفسه) اهلكها الله فقد كنت أتوقع منها هذه المحاولة .

فيرا : هذا الشاب الذي تريدون قتله رفيق من رفاقنا طالما خاطر بحياته الليلة تلو الليلة ليحضر اجتماعاتنا هذه . . . ليلة بعد ليلة ، والشوارع غاصة بالجواسيس والبيوت عامرة بالخونة كان يأتي إلينا بدون انقطاع وبوداعة ابناء الملوك التي نشأ عليها ، كان يشاركنا أعمالنا وحياتنا .

الرئيس : نعم ولكن باسم مستعار . لقد كذب علينا في البداية وها هوذا يكذب علينا في النهاية .

فيرا : اني اقسم على انه صادق . ما من أحد في هذا المكان إلا ويدين له ألف مرة بالبقاء حيا حتى الآن . . افتذكرون تلك الليلة الفظيعة التي انطلقت فيها كلاب الشر في اعقابنا . من انقذكم من الاعتقال فالحبس والجلد والتعذيب ثم الموت غيره هو؟ . من انقذكم غيره انتم يا من تتنادون الآن لقتله ؟! .

مايكل : رسالتنا قتل كل الطغاة .

فيرا : ولكنه ليس بطاغية . انا اعرفه جيداً . انه يحب الشعب .

الرئيس : ونحن نعرفه أيضاً انه خائن .

فيرا : خائن !؟ ألم يكن بإمكانه أن يخونكم منذ ثلاثة أيام هنا في هذا المكان ويجعل حبل المشنقة نصيب كل

منكم . . . ولكنه انقذنا جميعا ورد الينا أرواحنا وحرياتنا كلنا مرة واحدة . امهلوه قليلا . . . شهرا . . . اسبوعا . . . اياما قلائل . . . لكن ليس الآن . . . لا يا إلهي . . . ليس الآن . . .

المتآمرون : (يلوحون بخناجرهم) هذه الليلة . . . هذه الليلة . . . هذه الليلة . . .

فيرا : مهلا . . مهلا ايها الثعابين الجشعة .

مايكل : ولكننا السنا هنا للقتل والابادة . هل تريدين منا أن نرجع عن قسمنا .

فيرا : قسمكم . . قسمكم . . . انتم يا من يتحلب ريقكم شرها للمكاسب والاسلاب . . فكل يد من ايديكم قد طبعت على سلب ما عند اخوتكم وجيرتكم من مال حلال أو حرام . . . وكل نفس من نفوسكم قد جبلت على الطمع والانانية والاستئثار . . . من منكم ايها الانانيون النهمون ، يرفض تاجاً شرعياً يعقد فوق جبينه ويعف عن دنيا واسعة يرثها عن أبيه ويتنازل للعوام عن امبراطوريته ليتخاطفوها وينهبوها ويجعلوها شذر مذر . ان شعب روسيا لم يصبح بعد أهلا للحكم الجمهوري .

الرئيس : كل شعب أهل للحكم الجمهوري .

مايكل : ولكنه مستبد .

فيرا : مستبد ؟ أليس هو الذي طرد وزراءه الاشرار . أليس هو الذي قص جناح وزيره الأول وقلم أظفاره . هذا الذي كان غراب الشؤم في حياة أبيه ، فجاء إلينا اليوم يتحرق للانتقام وينعق بالثأر . انه ليس مستبدا . ارحموه . . امهلوه ليعيش اسبوعا آخر .

الرئيس : فيرا تدافع عن ملك .

فيرا : (بافتخار) اني لا ادافع عن ملك وانما عن رفيق .

مايكل : لا وانما عن خائن حنث بيمينه . وعن جبان قبل التاج وكان عليه أن يرميه بوجه من البسه اياه . . لا يا فيرا . . . لا ان نسل الرجال الشجعان لم ينقطع من الارض بعد وان هذه الدنيا الواسعة لم تعقم بعد عن انجابهم ولذا فلن يظل احد من أصحاب التيجان في روسيا يدنس أرض الله بوجوده دقيقة واحدة . . . .

الرئيس : لقد طلبت منا مرة أن نجربك . وها قد جربناك فإذا أنت حائرة مترددة .

مايكل : فيرا . . أنا لست أعمى . اني اعرف سرك . اعرف انك تحبين هذا الغلام ، هذا الامير الشاب ذا

الوجه الصبوح والشعر الذهبي المتموج واليدين الناعمتين . . . ولكن مجنونة انت إذ تنخدعين بلسانه الكاذب وكلامه المنمق المعسول . اتعلمين ماذا سيفعل بك إن وقعت بين يدي هذا الذي تظنين أنه يحبك ؟ انه سيتخذك خليلة يمتع نفسه بلذات جسدك حتى إذا ما قضى منك وطره رماك ونبذك . . . انت ، انت فيرا سابوروف ، رسولة الحرية وشعلة الثورة ومنار الديمقراطية .

فيرا : ليس المهم ما يفعله معي . انما المهم ما يفعله للشعب . انه سيكون اميناً عليه . انه يحب الشعب ، انه يحب الحرية . . .

الرئيس : اذن فسيصبح هو الملك الشعبي ونظل نحن نقاسي المسغبة والحرمان . يمنينا بالكلمات المعسولة والوعود الكاذبة كما كان يفعل أبوه ، ويكذب علينا كما كذب علينا اسلافه من قبل .

مايكل : وانت ، انت الذي يبعث اسمك الفزع والهلع في قلوب الطغاة في طول اوروبا وعرضها أنت فيرا سابوروف ، تخونين الحرية في سبيل حبيب وتتخلين عن قضية الوطن من أجل عشيق .

المتآمرون : انها خائنة . . . اسحبوا القرعة . . اسحبوا القرعة .

فيرا : مايكل ستروكانوف !! انك لتعلم في قرارة ضميرك بأنك كاذب . . واني لا أحب هذا الرجل ولا هو يحبني .

مايكل : انت لا تحبينه . اذن افلا يجب أن يموت ؟؟ .

فيرا : (بمجهود كبير وقد عقدت يديها بقوة) . نعم من الواجب أن يموت . . . لقد حنث بيمينه . يجب أن لا يبقى أحد من أصحاب التيجان في أوروبا . الم اقسم على هذا ؟ كيما نكون أقوياء فإن جمهوريتنا يجب أن تسقى بدماء الملوك . لقد حنث بيمينه فليمت الابن كما مات أبوه من قبل . . . ولكن مع هذا فليس الليلة . . . ليس الليلة . . ان روسيا التي تحملت المظالم قرونا طوالا تستطيع أن تنتظر الحرية اسبوعا آخر . . . امهلوه اسبوعا . .

الرئيس : اننا سنعمل من دونك . . . فاذهبي إلى هذا الغلام الذي تحبين .

مايكل : اني سأقتله ولو وجدته بين ذراعيك .

المتآمرون : الليلة . . . الليلة . . . الليلة . . . .

مايكل : (يشير بيديه علامة الهدوء) دقيقة واحدة . عندي ما أريد أن أقوله (يقترب من فيرا ويتكلّم معها بهدوء وببطء) فيرا سابوروف !! هل نسيت اخاك ديمتري . (يتوقف لحظة ليرى اثر كلامه فيها ، فيرا

تنهض من كرسيها) هل نسيت ذلك الوجه الشاب الشاحب من الجوع وتلك الملامح التي شوهها التعذيب والاطراف التي اكلتها سلاسل الحديد التي كان ينوء بحملها ويجرها وراءه جرا . أي أسبوع من الحرية امهلوه ؟ وأي يوم من الرحمة والشفقة منحوه ؟ (فيرا تخر إلى احد الكراسي) لو تذكرت هذا لتكلمت الآن عن الثأر والانتقام بحرارة اشد ، ولتكلمت عن الحرية والانعتاق بطلاقة أقوى . اتذكرين حين صممتِ على المجيء إلى موسكو وكيف تشبث بك ابوك العجوز وتوسل إليك ان لا تتركيه يموت وحيداً بعيداً عن أطفاله . انه ليخيل إليّ ان صرخاته وتوسلاته ما تزال ترن في اذني حتى الآن . . ولكنك كنت جامدة صماء كالصخرة الصلدة على شاطىء البحر . . وفي تلك الليلة نفسها غادرت اباك وتركته يتجرع آلامه وحده . فلم يحتمل الصدمة ومات بعد سفرك بثلاثة أسابيع كسير القلب وحيدا حزينا . ثم كتبتِ لي لالحق بك إلى هنا . وقد لبيتُ الطلب حالا ، لأني - في الدرجة الأولى - كنت احبك . ولكنك سرعان ما شفيتني من ذلك الحب ، بل وقضيت وحطمت كل ما كان بقلبي من عواطف رقيقة واحاسيس نبيلة ومن حب وشفقة . فلقد ذوت وماتت كلها كما

تضمروتموت السنبلة التي ينتابها الدود . لقد نزعتِ الحب من صدري ، وصيرتِ قلبي جلمودا ويدي حديداً وطلبتِ مني أن انذر نفسي للحرية وللانتقام . وقد فعلتُ . . ولكن . . . ماذا فعلتِ انتِ ؟ .

فيرا : فلتسحب القرعة (المتآمرون يهتفون) .

الامير بول : (لنفسه) اذن فسيرتقي الدوق الاعظم العرش بأسرع مما كان يتوقع . . . ومن المؤكد انه سيكون ملكا عظيماً تحت قيادتي وارشادي !! انه جد قاس مع الحيوانات ولا يفي بوعد مطلقاً . . .

مايكل : فيرا . . ها قد عدت إلى صوابك ثانية .

فيرا : (تقف جامدة وسط المسرح) القرعة . . . القرعة . . . إني لست امرأة الآن . . . فدمي يفور حقداً وقلبي بارد كالجليد . ويداي امضى من الحديد وافتك . . . انني لاسمع الآن صوت أخي السجين يأتيني عالياً عبر الفيافي أو من وراء القبور يطلب مني الثأر . . . يطلب مني أن اضرب ضربة أخرى في سبيل الحرية . . . القرعة القرعة . . .

الرئيس : نحن حاضرون . يا مايكل أن من حقك أن تبدأ السحب فأنت قاتل الملك .

فيرا : يا رب اجعلها من نصيبي . . . واجعلها بيدي . بيدي انا .
(يسحب الجميع أوراق القرعة من اناء كبير إلى جانبه جمجمة) .

الرئيس : افتحوا الاوراق .

فيرا : (فتفتح ورقتها) ان القرعة من نصيبي . . . انظروا الشارة الحمراء فيها . . . اهنأ يا اخي ديمتري ، فسأثأر لك اليوم .

الرئيس : فيرا سابوروف . لقد وقع عليك الاختيار لقتل الامبراطور . . . فماذا تفضلين . . . السم ام السكين ؟ (يقدم لها خنجراً وقارورة صغيرة) .

فيرا : ان يدي لتعتمد على الخنجر أحسن . (تأخذ الخنجر) انها لن تخيب . سأطعنه في صميم قلبه كما طعنني . . . انه لخائن . . . هذا الذي يتركنا في سبيل حجر تافه مزخرف ووشاح ارجواني . . . الذي يكذب علينا في كل يوم ثم ينسانا في ساعة . لقد كان مايكل مصيبا . انه لا يحبني حتى ولا يحب الشعب . . . اني لاظن بأني إذا ما غدوت أماً ووضعت ولداً فإني لأضع له السم في لبني خشية أن يعيش ويكبر فيغدو خائناً أو ملكاً (الامير بول يهمس إلى الرئيس) .

الرئيس : نعم . ايها الامير بول . هذه أحسن وسيلة . فيرا ، ان القيصر سينام الليلة في غرفته الخاصة بالجناح الشمالي من القصر . هذا مفتاح الباب الخارجي الخاص فخذيه . اما كلمة السر فستعطى لك بعدئذ . أما خدمه فسيسقون مخدراً لتنويمهم . لذا فستجدينه وحيداً .

فيرا : حسنا ، إني اذن لن اخيب .

الرئيس : اننا سننتظر خارجاً قرب النافذة . وسنكون مستعدين لنجدتك . فإذا ما دقت الساعة الثانية عشرة من برج نيكولاس فعليك أن تعطينا الاشارة على أن الكلب قد نفق .

فيرا : وما هي الاشارة ؟ .

الرئيس : ان ترمي إلينا الخنجر الدامي .

مايكل : يقطر منه دم الخائن وترتعش عليه روحه المجرمة .

الرئيس : فإن لم تصلنا الاشارة فسنعلم انهم قد قبضوا عليك وسنقتحم القصر ونخف لنجدتك وخلاصك من الحراس .

مايكل : ونقتله وسط حراسه .

الرئيس : مايكل . . . ستكون أنت قائدنا . . .

مايكل : نعم سوف اقودكم واحذري أن تخونك يداك يا فيرا سابوروف . . .

فيرا : ايها الاحمق . اتظن ان قتل المرء عدوه بهذه الصعوبة ؟ .

الامير بول : هذه تاسع مؤامرة اشترك فيها في روسيا . وكلها تنتهي بسفرة إلى سيبريا لاصدقائي المتآمرين وبوسام جديد لي .

مايكل : ولكن هذه آخر مؤامرة لك ايها الامير .

الرئيس : تذكري الخنجر الدامي في تمام الثانية عشرة .

فيرا : نعم مخضبا بدم ذلك القلب الكاذب . . انني لا انسى ذلك (تقف في وسط المسرح) لأقضي على كل نوازع الطبيعة في قلبي . ان لا احب ولا أحب، وأن لا ارحم ولا أُرحم . . نعم انه لقسم عليّ واي قسم . . . ان روح شارلوت كورداي تتقمصني الآن . انني سأخط اسمي في سجل التاريخ وادخل في عداد البطلات . . . نعم هذه روح شارلوت كورداي تتردد بين جوانحي . . . تمنح يدي النسوية القوة على أن تطعن كما اعطيت قلبي النسوي القدرة على أن يكره . . . سوف لن اتردد ولو وجدته مستغرقا في نومه وسأوجه له طعنتي حتى ولو رأيته يضحك في أحلامه . . . اهنأ يا ديمتري . . . اهنأ يا اخي في زنزانتك المظلمة . اهنأ وافرح ففي هذه

الليلة ستثأر لك اختك وفي هذه الليلة سيزحف هذا القيصر الصغير الجديد إلى الجحيم بقدمين داميتين ليحيِّي اباه هناك . . . هذا القيصر الخائن . . . المخادع الحانث بيمينه . . . والكاذب عليّ . الذي يتظاهر امامنا بالوطنية والاخلاص ثم لا يتردد عن ان يلبس التاج ويعتلي العرش !! الذي باعنا مثل يهوذا الخائن بثمن بخسٍ ثلاثين قطعة من الفضة والذي خاننا بقبلة . . . (بحرارة أشد) ايه أيتها الحرية . . . أيتها الام الخالدة على مدى الازمان . يا من رداؤك أحمر قان من دماء شهدائك الخالدين ، ويا من عرشك عال من جماجم ضحاياك من ابناء الشعوب ويا من تاجك من حسك الشوك . . . ايه ايتها الام الشهيدة . . . ايتها المصلوبة الخالدة . . لقد انفذ الطغاة مسمارهم في ذراعك الايمن ، وفي ذراعك الايسر انفذ المستبدون مسمارهم الثاني . . . وبالحديد سمروا قدميك المشدودتين ولما استغثتِ ، اغاثوك بشرآب علقم مر ثم في اضلعك اوغلوا سيفهم . . . واستمروا يهزأون بك جيلا بعد جيل . . . ايه ايتها الحرية . . انني هنا على مذبحك المقدس أنذر نفسي إلى خدمتك فأفعلي بي ما شئت (ترفع الخنجر بيدها) لقد حان الاوان الآن . . . ايه ايتها الام المصلوبة . . . ايتها الحرية . . . قسماً

بجراحك المقدسة ، قسماً بعذابـك الأزلي . . . قسماً بآلامك الخالدة . . . بدمائـك الزكيـة انني سأثـأر ، سأنتقم . . . سأنقذ امنا الروسيا .

الفصل الرابع

المنظر : ـ غرفة استقبال خاصة ملحقة بغرفة نوم القيصر . وتوصل بينهما باب . في مؤخرة المسرح شباك كبير تتدلى عليه ستارة طويلة .

الحاضرون : الامير بيتروفتش ، البارون راف . المركيز دي بوافرارد . الكونت روفالوف .

الامير بيتروفتش : لقد بدأ قيصرنا الجديد ايامه بداية طيبة .

البارون راف : (هازا كتفيه) كل القياصرة يبدأون بداية طيبة .

الكونت روفالوف : وينتهون نهاية سيئة .

المركيز بوافرارد : على كل حال فأنا لا يحق لي ان اتكلم . فقد اولاني جميلا لا أنساه .

الامير بيتروفتش : أظنك تعني إلغاء أمر سفرك إلى اركانجيل .

المركيز بوافرارد : نعم . فلو ذهبت إليها لما ضمنت بقاء رأسي بين كتفي ساعة واحدة هناك .

(يدخل الجنرال كوبتكين)

البارون راف : نعم ايها الجنرال ، هل من اخبار جديدة عن امبراطورنا الخيالي ؟ .

الجنرال كوبتكين: انه خيالي حقاً. فلقد وجدته قبل أسبوع في احدى المحلات النائية يلهو مع جماعة من الممثلين الجوالين واليوم فإن نزوته الجديدة هي الامر بعودة جميع المبعدين إلى سيبيريا منها حالاً والعفو عن جميع من يدعوهم بالسجناء السياسيين .

الامير بيتروفتش: السجناء السياسيون . . . ان نصفهم ليسوا أقل اجراما من المجرمين الاعتياديين .

الكونت روفالوف: والنصف الآخر اسوأ منهم بكثير .

البارون راف : انك تظلمهم ولا شك ايها الكونت ولكن البيع بالجملة اليق دائماً من البيع بالمفرد .

الكونت روفالوف: ولكن الواقع انه خيالي جدا . فقد رفض أمس منحي احتكار ضريبة الملح بحجة أن الشعب يجب أن يحصل على الملح بثمن رخيص .

الماركيز بوافرارد: لكن هذا لا يعد شيئاً مذكوراً . . . بل الادهى منه رفضه الاستمرار بإقامة حفلات الاستقبال الرسمية في كل ليلة بحجة أن المجاعة تجتاح الاقاليم الجنوبية الآن . (يدخل القيصر من الباب الموصل بين الغرفتين دون أن يلحظه الحاضرون . يقف مختبئاً بالستارة الطويلة يتسمع حديثهم) .

الامير بيتروفتش: يا لها من غباوة !! فكلما اشتدت المجاعة بين الناس كان ذلك خيرا لهم . فإنها تعلمهم نكران الذات وهي فضيلة سامية ، يا بارون .

البارون راف : اني غالبا ما اسمع هذا .

الجنرال كوبتكين: انه يتكلم أيضاً عن برلمان في روسيا وعن أن الشعب يجب أن يرسل إلى البرلمان ممثلين عنه .

البارون راف : كأن شغب العوام في الشوارع لا يكفينا ، فعلينا أن نجمعهم كلهم في مكان واحد يخصص للشغب . لكن الادهى من هذا انه هدد بإصلاح شامل لجهاز الموظفين بحجة أن الشعب قد أرهقته كثرة الضرائب .

الماركيز بوافرارد: ما اظنه جاداً في هذا . فما نفع شعبنا لنا غير تزويدنا بحاجتنا إلى المال . . . وعلى ذكر الضرائب يا عزيزي البارون . فإني أرجو أن تدفع لي أربعين الف روبل غدا . فزوجتي تريد أن تشتري سوارا جديداً من الماس .

الكونت روفالوف: (هامسا إلى البارون راف) لعلها تريده صنوا للسوار الذي قدمه إليها الامير بول في الاسبوع الماضي .

الامير بيتروفتش: وانا يجب أن احصل على ستين الف روبل في الحال . فإن ابني قد ركبته الديون ولا يستطيع سداداً لها .

البارون راف : يا له من ولد نجيب على سر ابيه .

الجنرال كوبتكين: انكم جميعا في حل من أخذ ما تريدون من الاموال ، ولكني لم احصل على كوبيك واحد حتى لآن ، بل ولم احصل على هذا الحق بعد . وهذا أمر غريب ولا يطاق . ان ابن أخي سيتزوج قريبا ويجب أن ادفع الصداق عنه .

الامير بيتروفتش: يبدو لي يا عزيزي الجنرال ان ابن اخيك هذا تركي مثالي ، فهو يتزوج باطراد ثلاث مرات في الاسبوع .

الكونت روفالوف: لقد سئمت من سكني المدن! اريد بيتا في الريف .

المركيز بوافرارد: وانا سئمت السكن في الريف واريد داراً في المدينة .

البارون راف : انني في غاية الاسف من اجلكم ايها الاصدقاء . فطلباتكم غير ذات موضوع الآن .

الامير بيتروفتش: وابني ايها البارون ؟ .

الجنرال كوبتكين: وابن اخي ؟ .

المركيز بوافرارد: وزوجتي ؟ .

الكونت روفالوف: وداري في الريف ؟ .

المركيز بوافرارد: وداري في المدينة ؟ .

البارون راف : هذه طلبات مستحيلة الآن ايها السادة . فإن العهد القديم قد انتهى ولفظ انفاسه منذ الامس . وسنحتفل بتشييع جثمانه هذا اليوم .

الكونت روفالوف: اذن فعلينا أن ننتظر البعث الجديد .

الامير بيتروفتش: وفي فترة الانتظار . . . ماذا يجب أن نعمل ؟ .

البارون راف : وماذا كنا نعمل في كل مرة يأتي بها إلى العرش قيصر جديد ويعتزم الاصلاح ؟ لا شيء . . . لا تنس اننا رجال رأي وسياسة وان رجال الفكر لا دخل لهم دائما بالاعمال . ان الاصلاح في روسيا لمأساة حقا ولكنها على الدوام تنتهي بمهزلة .

الكونت روفالوف: اتمنى لو كان الامير بول بيننا الآن . والشيء بالشيء يذكر ، الا ترون أن هذا الغلام قد جحد للامير بول صنيعه . فلو لم يسارع هذا الداهية العجوز بتنصيبه امبراطورا حال مقتل والده ، ومن دون أن يدع له وقتا للتفكير ، لكان هذا الغلام قد تخلى عن تاجه على ما اعتقد لأول اسكافي يمر به في الشارع .

الامير بيتروفتش :ولكن هل تظن ، ايها البارون ، ان الامير بول سيسافر فعلا ؟ .

البارون راف : هذا مؤكد . فقد اخبرني الامير بول بأنه ارسل إلى باريس حتى الآن برقيتين حول تنظيم عشائه .

الكونت روفالوف: هذا فصل الكلام . . .

القيصر : (يتقدم نحوهم) الأولى بالامير بول أن يرسل برقية ثالثة ويحجز (يعدهم واحداً واحداً) ستة أماكن أخرى .

البارون راف : ما هذا . . . الشيطان ! .

القيصر : كلا بل القيصر يا بارون . ما كان يمكن للملوك أن يستبدوا قط لولا وجود امثالكم من الوزراء الفاسدين حواليهم . وما كانت الامبراطوريات العظمى لتتحطم على صخور عظمتها الا برجال أشرار من امثالكم . أن امنا الروسيا لم تعد بحاجة إلى اشباهكم من ابنائها العاقين . لا تستغفروا فلن ينفعكم هذا شيئا ، فأنتم لا تستطيعون أن تكفروا عما اقترفت ايديكم من أعمال . فالقبور لا تنشر من دفنتم بها ، والمشانق لا تعيد الحياة لمن علقتم عليها . ولكني سأكون بكم رحيماً . سأبقي على رؤوسكم . وستكون هذه بالذات لعنتي التي تلاحقكم . . . ولكن إذا ما وجد أي منكم في موسكو في مساء الغد فثقوا أن رأسه لن تبقى بين كتفيه . . .

البارون راف : مولاي . . . انكم لتذكرونا بصورة مدهشة بجلالة والدكم المرحوم .

القيصر : أنتم منفيون جميعاً من روسيا . واملاككم تصادر لتصير ملكاً للشعب . اما القابكم فهي لكم . . . الاصلاح في روسيا ينتهي دائماً بمهزلة ايها البارون . . . وانت ايها الامير بيتروفتش سوف تتهيأ لك فرصة طيبة لنكران الذات . . . وهي فضيلة سامية . . . فضيلة سامية . . . واذن فأنت يا بارون راف ، تعتقد أن البرلمان في روسيا سيكون مجرد مجمع للمشاغبين والشغب . حسنا سأوعز بإرسال محضر كل جلسة اليك بصورة منتظمة .

البارون راف : مولاي انك في هذا تضيف إلى عقوبة النفي عقوبة أفظع هي التعذيب . . .

القيصر : ولكنك ستجد الوقت الكافي للقراءة بعد الآن . . . فلا تنس انكم انتم رجال الرأي والسياسة وان رجال الفكر يجب أن لا يتدخلوا مطلقا في الاعمال .

الامير بيتروفتش : ولكننا كنا نمزح يا مولاي ! .

القيصر اذن فإنني اطردكم لمزاحكم القذر . . رحلة سعيدة ايها السادة . ومن كان منكم حريصا على رأسه فليلحق بأول قطار إلى باريس (يخرج الوزراء) ان من الخير لروسيا أن تتخلص من هؤلاء الاشرار الجبناء ، فهم الثعالب المراوغة التي تسير في ركاب الاسود ، فلا قدرة لها إلا على الدس اللئيم ولا هم لها إلا النهب والسلب

والاستغلال . . . فلولا هؤلاء وعلى رأسهم الامير بول ، لظل أبي ملكا خيّراً لشعبه ولما انتهى هذه النهاية المفجعة .

انه لمن الغريب حقا أن احفل ساعات المرء بالوقائع والاحداث لتمر وكأنها حلم من الاحلام . اجتماع الوزراء ، الاحكام العرفية ذلك القانون البغيض الخانق لحرية الشعب وحياته ، اعتقالي : الهتاف في ساحة القصر ، طلقة المسدس ، والذي بجراحه الدامية . . . . ثم . . ثم التاج على رأسي . . .

قد يعيش المرء أحياناً سنين طويلة دون أن يتهيأ له أن يحس بالحياة ، ثم تأتيه فجأة لحظات قصار يحس وكأن الحياة كلها قد تجمعت فيها مرة واحدة . . . لم يكن لي آنذاك وقت لتفكير ، فقد كانت اصداء حشرجات الموت المنبعثة من صدر والدي المحتضر ما تزال تملأ سمعي حين وجدت هذا التاج قد وضع على رأسي والرداء الارجواني يلف بدني وسمعتهم ينادونني . . . الملك . . . لم يكن التاج ليعني شيئاً عندي آنذاك . . . اما الآن ، فهل باستطاعتي التخلي عنه ؟ (يدخل الكولونيل آمر الحرس) نعم . . ايها الكولونيل . . . تفضل .

الكولونيل : ما هي كلمة السر التي يرغب فيها جلالتكم هذه الليلة ؟

القيصر : كلمة السر ؟ .

الكولونيل : نعم ، يا مولاي ، كلمة السر لدوريات الحرس والجنود هذه الليلة .

القيصر : لك ان تصرف الحرس . أنا لا احتاجهم (يخرج الكولونيل ، القيصر يذهب إلى التاج الموضوع على المنضدة) أية قوة سحرية خارقة تكمن في هذا الوشي الاجوف وفي هذه الالعوبة المزخرفة التي اسمها التاج فتجعل صاحبها يشعر وكأنه اله عال يضطرب من تحته وطوع يديه هذا العالم الصغير . . . فذراعه تستطيع أن تمتد إلى اقصى اقاصي الارض . وزورقه يستطيع أن يلف البحار السبعة بشراعه الصغير . وجيوشه تملأ الارض وتطويها تحت أقدامها طيا . . . كل هذا لأن على رأسه تاجا . . . لأن على رأسه تاجا . . . ولكن اتفه مخلوق في روسيا ينعم بالحب والحنان فهو متوج بخير من تاجي وهو خير مني . . آه كيف يغير الحب الموازين ؟ ما اصغر ما يبدو ملك هذا العالم الذهبي الفسيح إذا ما قورن بالحب . . لكني وأنا سجين قصري هذا تتعقبني الجواسيس المكلوبة في كل خطوة ، لم اسمع عنها شيئاً ولم ارها أبداً منذ تلك الساعة المرعبة التي أصبحت فيها قيصرا على هذه البلاد الواسعة الضائعة . . . آه . هل يمكن أن اراها ولو دقيقة واحدة لاخبرها بسر حياتي الذي لم أجرؤ على التلفظ به من قبل . لاخبرها لماذا ارتضيت هذا التاج وأنا الذي اقسمت على حرب

كـل ذوي التيجـان . . . لقـد اجتمعـوا هـذه الليلة . . . لقد وصلت إليّ الدعوة بالحضور من يد مجهـولـة . . . ولكن كيف استـطيـع الـذهـاب اليهـم . . . أنـا الـذي حنثت بيميني وخلفت وعدي . . . ؟ .

(يدخل وصيف)

الوصيف : ان الساعة جاوزت الحادية عشرة يا مولاي . هل ابدأ نوبة الحراسة الأولى في غرفة نومكم ؟ .

القيصر : ولماذا تحرسني انت ايها الغلام . ان النجوم لتحرسني بعد الآن .

الوصيف : لقد كانت عادة جلالة والدكم أن لا يبقى في الغرفة وحده حين ينام .

القيصر : لقد كانت الاحلام المفزعة كثيراً ما تزعج والدي . اما اليوم فأذهب أنت إلى فراشك يا صديقي ، فإن الليل يوشك أن ينتصف واخشى أن يذبل السهر الطويل هذه الوجنة الريانة (الوصيف ينحني ويهم بتقبيل يد القيصر) . . لا . . لا ليس من هذا شيء بعد الآن . . . فطالما لعبنا سوية في طفولتنا . . . آه . . لأن اتنفس الهواء الذي تتنفسه ولا اراها ، ليجعل نور عيني يخبو وشمس نهاري تغيب .

الوصيف : الكسيس ، مولاي . دعني أحرسك هذه الليلة فإني لأحس أن ثمة خطراً يتهددك .

القيصر : ومم أخاف . لقد ابعدت كل أعدائي من روسيا . قرّب المدفأة إليّ قليلا ، فالبرد شديد ، واريد أن أجلس إليها بعض الوقت فعندي الكثير مما يجب أن افكر فيه هذه الليلة (يذهب إلى اقصى المسرح ويزيح الستار عن الشباك الكبير ، فيبدو امامه منظر موسكو تحت ضوء القمر) لقد سقط الجليد بغزارة منذ الغروب . ما اشد ما تبدو مدينتي بيضاء باردة تحت ضوء هذا القمر الشاحب . . . ومع هذا فما أكثر القلوب التي تفور بالحرارة والحماس تحت جليد روسيا هذا . آه . لو أراها لحظة واحدة لاخبرها لماذا احتفظت بالتاج . انها لا تشك بي أبدا . انها تثق بي دوما . انها ستبقى تثق بي ولو اني حنثت بيميني . . . انها ستثق . . . ان البرد شديد . . . اين غطائي ؟ سأنام ساعة وبعدها فإني فسأطلب احضار زلاقتي . يجب أن أراها ولو مت في سبيل ذلك . . . يجب أن أرى فيرا هذه الليلة . ألم أطلب منك الانصراف ايها الشاب ؟ ماذا ؟ اتريدني أن ابدأ الاستبداد معك بهذه السرعة . اذهب . . . انني لا أستطيع أن احيا دون أن اراها . يجب احضار الجياد إليّ بعد ساعة من الآن . ساعة

واحدة بيني وبين الحب . . ما اثقل رائحة هذا الفحم الحجري . . (يخرج الوصيف . القيصر يضطجع على اريكة قرب المدفأة وينام . . . بعد لحظات تدخل فيرا ملتفعة بإزار أسود) .

فيرا : انه نائم . . . ما الطفك يا رب . فمن سينقذه الآن من يدي ؟ هذا هو . . هذا الديمقراطي الذي صار ملكا ، والجمهوري الذي لبس تاجا ، والخائن الذي كذب علينا . . . لقد صدق مايكل . . انه لا يحب الشعب . . . ولا يحبني ايضاً . (تنحني عليه) آه . . اني لاعجب كيف يمكن للسم أن يكمن وراء هاتين الشفتين الجميلتين ؟ ولكن الم يكن ذهب شعره أكثر بريقاً منه الآن ؟ أم أن لبس التاج قد افقده لونه . . . ولكن ها هي ساعتي قد حلت . ها هي ساعة الشعب والحرية قد آنت . اني وان كنت قد قضيت على جميع عواطفي وعلى جميع نوازع الطبيعة في نفسي فلم أكن لاتصور أن القتل بهذه السهولة . . . طعنة واحدة وينتهي كل شيء . . . وبعدها اغسل يدي بالماء . . . اغسل يدي . . . خذها فأني سوف انقذ روسيا. خذها فأني اقسمت عليها (ترفع الخنجر لتغمده بالقيصر) .

القيصر : (يستيقظ . . وينهض فجأة فيمسك ذراعها بكلتا

يـديه) فيـرا . . أنت هنا . . فـرؤيـاي اذن لم تكن حلما . . أين كنت عني في هذه الايام الثلاثة ، وانا إليك في أشد الحـاجة ؟ ربـاه هل تـظنين اني خـائن كـذاب . . ملك . . انـا لست ملكـا . . أنـا عبـد حبــك . فيـرا . . من اجلك انت نكلت عن يميني ولبست تاج ابي . اريد أن أضـع تحت قدميـك هذه الـروسيـا الشـاسعـة التي احببنـاهـا أنت وأنــا كـل الحب . . أريد أن اجعل هذه الامبراطـورية مـوطئا لقـدميك . . أن اضـع هـذا التــاج عـلى رأســك الجميــل . . . ان الشعب سيحبنـا ، وسنســوســه بــالحب كـما يســوس الابـوان الحنــونـان أولادهم الصغار . ستعم الحرية روسيا كلهـا . . . حريـة كل شخص في أن يعتقـد ما يشـاء ، حريـة كل شخص في أن يقول ما يعتقد . . . لقد طردت الذئـاب التي كـانت تتربص لافتـراسنا . لقـد ارجعت اخاك من سيبيريا ، وامرت أن تفـتح أبـواب المناجم الكـريهة ليخرج منها جميع من فيها . . . ان رسولي في طريقه الآن إلى هنـاك ليشرف عـلى تنفيذ الامـر . . وبعـد أسبوع واحد فقط سيعـود ديمتري وكـل من معه إلى اهليهم . سيكـون الناس أحـرارا . . . انهم أحـرار الآن . . عنـدما قـدموا لي هـذا التـاج فكـرت أول الأمـر أن أقذف بـه إليهم لولا اني تـذكـرت بـأنـك

شـريكتي فيه . . . يـا فيرا . . ربـاه ! ان من عـادة الرجال الـروس أن يقدمـوا الهدايـا إلى من يحبون ، ولكني قلت اني سـأقدم إلى امـرأتي التي أحبها تـاجا وشعبـا وامبراطـورية ودنيـا واسعة . . فيـرا . . انني مـن أجلك . . مـن أجلـك فقط احـتفـظت بهـذا التاج . . من أجلك فقط رضيت أن أصير ملكا . . لقد كان حبي لـك أقوى من قسمي . . ولكن لماذا لا تتكلمـين ؟. اجيبي هـل جئت لتحـذيـري من مؤامرة تدبر على حيـاتي ؟ ما قيمـة الحياة من دونـك ؟. (تسمع ضجة المتآمرين في الخارج) .

فيرا : آه . . لقد ضعنا . . . ضعنا . . . ضعنا . . .

القيصر : لا لن تضيعي وأنت معي ، انك آمنة هنـا . الفجر سيبـزغ بعد خمس سـاعـات فقط . . . وغـدا . . . غدا سآخذك لاقدمك إلى الشعب . .

فيرا : غداً !؟

القيصر : وفي تلك الكنيسـة القـديمـة التي بنـاهـا اجـدادي سأتوجك بيدي امبراطورة على روسيا كلها .

فيرا : (تسحب يدها منه بقوة) أنـا فوضـوية ولا يمكن أن اضع التاج على رأسي .

القيصر : (يـركع عنـد قدميهـا) ما أنـا بملك الآن . انما أنـا شاب قد احبك أكثر من شـرفه ، اكـثر من قسمه .

فحبي لشعبي صيرني وطنيا وحبي لك صيرني خائنا . فلنسر سوية . سوف نعيش بين عوام الشعب . سوف اترك الملك . سوف اكدح لك بيميني كما يكدح العامل والفلاح . . آه . . . قليلا من الحب يا فيرا (تسمع ضجة المتآمرين في الخارج) .

فيرا : (تمسك الخنجر) لكيما اقضي على نوازع الطبيعة فيّ . يجب أن لا أحب وان لا أحب ، أن لا أرحم وأن لا أرحم . . . آه . . ولكني امرأة الآن . . . النجدة يا رب . . . اني امرأة إني حنثت بيميني أيضاً . . لقد حنثت بقسمي . . اني أحب . . اني احبك . . آه لا تتكلم . . لا تتكلم (تقبل شفتيه) المرة الأولى والاخيرة (يحتضنها بين ذراعيه ويجلسان على الاريكة معا) .

القيصر : اني أستطيع ان أموت الآن .

فيرا : وكيف يجرؤ الموت على أن يمس هاتين الشفتين الجميلتين . . . حياتك . . . حبك هما خصوم الموت . . . لا تتكلم عن الموت الآن ليس الآن . . . ليس الآن . . .

القيصر : لا أدري لم أذكر الموت . . ربما أن كأس حياتي قد طفحت بالسعادة فلم تعد تحتمل شيئاً بعد . . . فهذه ليلة عرسنا .

فيرا : ليلة عرسنا . . لا . . لا . . فالموت يجب أن لا يحضر الاعياد . . . لا مكان للموت هنا .

القيصر : انه لن يكون من نصيبنا على كل حال . (تسمع ضجة المتآمرين في الخارج) .

فيرا : ما هذا ، هل سمعتَ شيئاً ؟ .

القيصر : نعم . صوتك فقط فهو النغم الوحيد الذي تسمعه اذناي . وهو لحن الصياد الذي يستهوي قلبي فيهفو إليه كطائر مسكين يهفو من عشه بين الاغصان .

فيرا : يخيل إليّ اني اسمع بعض الضحكات . . .

القيصر : انه لا شيء غير الريح والمطر ، فالليل عاصف ممطر كما يبدو .

فيرا : انه سوف يكون كذلك حقا . اين حراسك اين حراسك ؟ .

القيصر : واين يجب أن يكونوا الآن الا في بيوتهم ؟! . انني لن ارضى أن اسجن نفسي بين السيوف والحديد . . . ان حب الشعب هو حارس الملك الامين .

فيرا : حب الشعب !؟ .

القيصر : حبيبتي أنت آمنة هنا . لا شيء يمكن أن يؤذيك . . . حبيبتي انك كنت تثقين بي في الماضي . . . فثقي بي الآن أكثر وأكثر . .

فيرا : نعم كنت اثق بـك . . . حبيبي ان الماضي يبـدو وكأنـه حلم بـارد بـاهت بعيـد . . ان روحينـا قـد استيقـظتـا من ذلـك الحلم الآن . . . وهمـا الآن تنعمان بالحب وتتذوقان الحياة . . . الحياة . . . هذه هي الحياة .

القيصر : نعم . . . هذه هي الحياة . . .

فيرا : ليلة عرسي . . آه . . دعني أملأ كأس الحب دهاقاً واشربها حتى الثمالة ، في ليلتي هذه . . لا . . لا يا حـبيـب الـقـلب لـيس الآن . . . مـا أروع هـذا السكـون ، ومع هـذا فيبدو وكـأن موسيقى عـذبـة رقيقـة تملأ هـذا الفضاء . . انها ولا شـك تغـاريـد العنـادل التي سئمت جو الجنـوب فهجرتـه إلى هـذا الشمال القارص لتغرد نغماتهـا الرقيقـة للعشاق من امثالنا . ألا تسمع ؟.

القيصر : يـا حبيبتي ان اذنـاي الآن لا تسمعـان من الانغـام الحلوة إلا صـوتك الحنـون . . وعيناي لا تـريان في الاضواء الا وضاءة وجهك الجميل . . . والا لكنت سمعت تغـريدالعنـدليب في فنن الاشجـار ولـرأيت الشمس بحلتها الذهبية تنسل من خـدر امها مبكـرة عـلى خلاف عـادتها غيـرة وحسداً منـك لأنك ابهى منها وأجمل . . .

فيرا : ومع هذا فقد كنت اود ان تسمع هذا الطائر الغريد . . فقد لا نسمع هذا التغريد ثانية . .

القيصر : انه ليس العندليب ما تسمعين . . . بل هو الحب يغرد ويغني من فرط البهجة والحبور لانك نذرت نفسك إلى معبده . . .
(الساعة تدق الثانية عشرة) اسمعي اسمعي . . يا حبيبتي . . هذه ساعة العشاق والمحبين . . فتعالي نقضي في الشرفة بعض اللحظات ونسمع دقات منتصف الليل تتجاوب من برج إلى برج فوق هذه المدينة الواسعة البيضاء . . . انها ليلة عرسنا . . ولكن ما هذا ؟ ما هذه الضجة (تسمع ضجة المتآمرين في الخارج) .

فيرا : (تفلت من يده وتهرع إلى وسط المسرح) انهم ضيوف العرس قد سبقوا بالحضور . . . نعم هذه اشارتكم . . . وستكون بين أيديكم حالا (ترفع الخنجر وتطعن نفسها) هاكم اشارتكم (تهرع إلى النافذة) .

القيصر : (يركض نحوها ويقف بينها وبين النافذة ويخطف الخنجر من يدها) . فيرا . . .

فيرا : (ممسكة به) اعطني الخنجر . اعده لي . في الشارع رجال يرومون قتلك . . . لقد خانك حراسك . .

وهذا الخنجر الدامي يُرمى إليهم هو الدليل على قتلك . . . (ترتفع ضجة المتآمرين في الخارج) اسرع . فالدقائق محسوبة عليك وهي أثمن من أن تضيع . . . اسرع وارم لهم بالخنجر . . . اقذف لهم بالخنجر فلا شيء ينجيني بعد الآن ، فهذا النصل سام . . . اني بدأت اشعر بالموت يمشي في دمي . . لم تكن هناك وسيلة غير هذه . . .

القيصر : (يمسك الخنجر بعيدا منها) ان الموت ليمشي في دمي أيضاً فلنمت سوية اذن .

فيرا : لا . . لا . . يا حبيبي . . . لا يا حبيبي . . كن رحيما بي . . . ان الذئاب الجائعة تتربص بك ولكن انت يجب أن تعيش . . . أن تعيش من أجل الحرية . . . من أجل روسيا . . . من اجلي أنا . . . آه انت لا تحبني . . . لقد وهبت لي امبراطوريتك قبل لحظات . . . فاعطني الآن هذا الخنجر فقط . . . الخنجر . . . آواه انك قاس معي . . . ارحمني لقد ضحيت بحياتي من اجلك . . انها لا شيء . . .

(صيحات عالية من الخارج تنادي : فيرا . . فيرا . . . نحن قادمون . . . للانقاذ . . . للنجدة . . .).

القيصر : لقد فقدت الحياة طعمها عندي .

فيرا : اواه . . لقد اقتحموا المداخل . انظر خلفك . انظر هـذا الرجـل الدامي خلفـك . . . (يلتفت القيصر للوراء لحـظة واحدة) اواه . . آه (تخـطف الخنجـر منه وترميه من النافذة) .

المتآمرون في الشارع : النصر للشعب . . . النصر للشعب .

القيصر : فيرا ماذا فعلت ؟ .

فيرا : لقد أنقذتك . . لقد أنقذت روسيا . . . لقد بررت بقسمي . . . لقد أنقذت روسيا . (تموت) .

الستار

انتهت المسرحية

فهرست الكتاب